الفصل الأوّل:

المنهج الوصفيّ في التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث

المبحث الأوّل / المسار التّاريخيّ للتّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث

المبحث الثاني / المنهج الوصفيّ في إطاره النظريّ ودور الّرواد العرب الوصفيّين في تنظيره.

المبحث الأوّل:

المسار التّاريخيّ للتفكير اللّغويّ العربيّ الحديث

1 ـ مفهوم التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث وخصائصه

2 ـ نشأته

3 ـ أصوله الفكريّة والفلسفيّة

4 ـ ما يعترضه من معوّقات.

1 – مفهوم التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث وخصائصه:

لعلّ اللّفظين: التّفكير واللّغويّ، هما أكثر ألفاظ مصطلح ((التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث)) حاجة إلى أن يفردا بتعريف لغويّ واصطلاحيّ؛ باعتبارهما اللّبنة الأساسية في هذا التّركيب الاصطلاحيّ. أمّا اللّفظان: ((العربيّ)) و((الحديث))، فإنّهما ليسا سوى نعتين لتوضيح طبيعة هذا التّفكير وتحديد معالم إطاره. وعليه، فإنّنانغض الطّرف عن تعريفيهما اللّغوي والاصطلاحيّ؛ تفاديا للتّطويل والإسهاب غير المجدي.

فالتّفكير لغةً هو " التّفكر بمعنى التّأمل واسمه الفكر والفكرة، من قولهم: فكّر في الشّيء، وأفكر فيه وتفكّر والفَكر والفِكر: إعمال الخاطر في الشّيء "؛[1] وفي اصطلاح علماء الفكر هو " قدرة الإنسان على تفحص الأشياء واستعراضها بصفة رمزيّة وخياليّة لا بصفة فعليّة ".[2]

وعليه يمكن القول بأنّ التّفكير اللّغوي باعتباره تركيبا اصطلاحيّا، يعني تناول اللّغويين التّفكير من زاوية تخصصهم، وهي دراسة العلاقات القائمة بين أنظمة اللّغة المتعددة وهي النّظام الصّوتي والنّظام الصرفي والنّظام النحويّ والمعجم.

ومن الطّبيعيّ أن تتنوّع ألوان هذا التّفكير تبعا لتنوّع الشّعوب وتباين العصور، بحيث يستحيل تناولها جميعا بالدّراسة دفعة واحدة، وهو ما جعل تحديد إطاره القوميّ واللّسانيّ والزّمنيّ لازمًا. فالإطار القوميّ واللّسانيّ للتّفكير اللّغويّ في هذا البحث يحدّده اللّفظ ((العربيّ)) بينما يتولّى اللّفظ ((الحديث)) ببيان حدّه الزّمنيّ. فمقصودنا بـ ((التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث)) مفهوما وتأريخا هو نتاج أولئك اللّغويين الذين تبنّوا في دراساتهم اللّغوية

---

(1) – لسان العرب، ابن منظور، تصـ: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العَبيدي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت. لبنان، ط3، 1419هـ. 1999م، ج10، ص: 307 وينظر: تاج اللّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ط 2، 1399 هـ. 1979م، مادة: ف ك ر، ص: 783.

(2) – التّفكير واللّغة، جودث جرين، تر: عبد الرّحمن بن عبد العزيز العبدان، دار علم الكتب، الرّياض. المملكة العربيّة السّعودية، ص:4.

العربيّة مناهج علم اللّغة الحديث linguistique،[1] الذي عرّفه علماء اللّغة المحدثين بأنّه " العلم الذي يدرس اللّغة دراسة علميّة "،[2] وموضوعه الحقيقيّ والوحيد - كما ظلّ دي سوسير[3] يردّده ويؤكّد عليه - هو " اللّغة في ذاتها ولذاتها "،[4] بمعنى " أنه يدرسها من حيث هي لغة، يدرسها كما هي، يدرسها كما تظهر، فليس للباحث فيها أن يغيّر من طبيعتها، كما أنه ليس للباحث في موضوع أي علم من العلوم أن يغيّر من طبيعته، فليس له أن يقتصر في بحثه على جوانب من اللّغة مستحسنا إيّاها، وينحي جوانب أخرى استهجانا لها، أو استخفافا بها، أو لغرض في نفسه أو لأي سبب آخر من الأسباب ".[5]

على أنّ الدّراسة العلميّة البحتة للّغة لم تظهر في السّاحات اللّغويّة الغربيّة إلاّ في القرن العشرين، وكان أوّل ما ظهر على يد دي سوسير، وحينها اختطفت الدّراسات اللّغويّة الصّدارة من العلوم الإنسانيّة، وظلت اتّجاهاتها تتكاثر وتتسع على مدار السّنوات المتعاقبة

---

(1) . ينظر: المسار الجديد في علم اللّغة العام، وليد محمّد مراد، مطبعة الكواكب، دمشق – سوريا، ط: 1، 1406 هـ. 1986م، ص: 85.

(2) – مقدّمة لدراسة علم اللّغة، حلمى خليل، دار المعرفة الجامعيّة، 2000م، ص: 9 نقلا عن: التّعريف بعلم اللّغة، كريستل دافيد، تر: حلمى خليل، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية. مصر، 1979م، ص: 11.

(3): هو فردينان دي سوسيرFerdinand de saussure، رائد علم اللّغة الحديث، ولد عام 1857، وتلقى تعليمه في جنيفGenève ، ثم في ليبزغ Leipzig بألمانيا، حيث أعدّ رسالته حول استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسكريتية، ثمّ استقر بباريس من عام 1880م إلى عام 1891م، ومارس خلال هذه الفترة تدريس النّحو المقارن في مدرسة الدّراسات العليا، ثم عاد إلى جنيف ليتولّى تدريس اللّغة السّنسكريتيّة والنّحو المقارن فاللّسانيات العامّة إلى أن وافته المنية عام 1913م. وقد نشر بعض طلابه دروسه التي ألقاها في الفترة الأخيرة من عمره بعنوان ((دروس في الألسنية العامة)) وذلك عام 1916م. ينظر: الموسوعة العربيّة العالميّة، مؤسّسة أعمال الموسوعة للنّشر والتّوزيع، الرّياض. المملكة العربيّة السّعوديّة، ط: 2، 1419 هـ. 1999م، ج13، ص: 246.

(4) - دروس الألسنيّة العامّة، فردينان دي سوسير، تر : محمد الشّاوس ومحمد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب، 1985م، ص : 347.

(5)- علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربي))، محمود السّعران، دار النّهضة العربيّة، بيروت – لبنان، ص:51.

لنشأتها. [1] ويلاحظ أنّ ((العلميّة)) المنصوص عليها في تعريف علم اللغة الحديثlinguistique و((اللّغة)) المشار إليها في بيان مادّة دراسته، بمثابة عنصرين رئيسين يستوقفان الباحث بإلحاح للتّعريف بهما.

1 / 1 ـ **تعريف ((اللّغة))**:

فاللّغة في المعجم العربيّ هي اللِّسن، من قولهم " لَغَوْت أَي تكلَّمت، أَصلها لُغْوة ككُرةٍ وقُلةٍ وثُبةٍ ... وقيل أَصلها لُغَيٌ أَو لُغَوٌ والهاء عوض، وجمعها لُغًى مثل بُرة وبُرًى. وفي المحكم، الجمع لُغات ولُغونَ "،[2] و" النسبة إِليها لُغَوِيّ ولا تقل لَغَوِيٌّ ".[3]

وفي الاصطلاح، فقد ظهرت للّغة في تاريخ الفكر اللغويّ – قديمًا وحديثًا – تعريفات متعدّدة ومختلفة يصعب علينا رصدها جميعا، وعليه نكتفي بإيراد ثلاثة تعريفات من وضع مدارس لغويّة متباينة، وهي كالآتي :

أ – تعريف ابن جنيّ[4] القائل بأن اللّغة " أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم "،[5] وواضع هذا التّعريف قطب من أقطاب التّراث اللّغويّ العربيّ، وهو تعريف دقيق وموجز

(1) . ينظر: عَلاَمَ اللّسانيات، أنطون مقدسي، الموقف الأدبي، ع: 135، تموز . آب 1982م، ص: 23؛ وفردناند دو سوسور مؤسّس علم اللّغة الحديث، نجيب غزاوي، المعرفة (مجلّة ثقافيّة شهريّة تصدرها وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ)، سنة: 17، ع: 200، تشرين أوّل ((أكتوبر))، 1978 م، ص: 90.

(2) – لسان العرب، ابن منظور، تص : أمين محمّد عبد الوهّاب ومحمّد الصّادق العَبيدي، مادة: ل غ و، ج: 12، ص: 300.

(3) – المصدر السّابق والصّفحة نفسه

(4) – هو أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصلي، كان إماما في العربية، ولد بالموصل قبل سنة 330ه من والد رومي كان مملوكًا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي، لازم أبا عليّ الفارسيّ متتلمذًا، ثمّ خلفه في التّدريس بعد وفاته، وتوفي ببغداد يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة 392 . ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، اعتناء مكتب التّحقيق، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط 1، 1417ه-1997م، ج: 2، ص: 117.

(5) – الخصائص، ابن جنيّ، تح: محمّد عليّ النّجار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، ط: 4، ج: 1، ص: 34.

يجعل الصّوت أهمّ عنصر من عناصر اللّغة، كما أنّه يشير إلى الوظيفة الاجتماعيّة للّغة.[1] ويلاحظ على هذا التّعريف على دقّته، أنّه حصر اللّغة في المنطوقة من دون المكتوبة، لكنّ اللّغة بصفتها ظاهرة إنسانيّة تتجلّى في مظاهر كثيرة، ليس الصّوت إلاّ مظهرًا واحدًا منها. لكنّ ابن جنيّ وغيره من اللّغويّين كإدوار سابير مثلاً، بنوا تعريفاتهم للّغة على المظهر الصّوتي؛ نظرًا لقدمه وسهولة توظيفه.[2] فاللّغة إذًا وجهان: وجه منطوق وآخر مكتوب، وإن كان المنطوق أكثر أصالة وأجدر بالعناية عند الدّراسة. على أنّ عبده الرّاجحي[3] يرى في قصر ابن جنيّ اللّغةَ على ((الأصوات)) دليلاً ساطعًا على أنّ اللّغويّين العرب المتقدّمين كانوا يدرسون اللّغة باعتبارها منظومة قائمة على الأصوات على غرار علماء اللّغة المحدثين.[4]

ب – تعريف إدوار سابير[5] Edouard Sapir الذّاهب إلى أنّها " ظاهرة إنسانيّة وغير غريزيّة لتوصيل العواطف والأفكار والرّغبات بواسطة نظام من الرّموز الصّوتيّة

(1) . ينظر: التّمهيد في علم اللّغة، محمّد خليفة الأسود، منشورات جامعة السّابع من أبريل، ط: عام 1425م.ر، ص: 9. وللمزيد من التّوسع ينظر: فقه اللّغة في الكتب العربيّة، عبده الرّاجحي، دار النّهضة العربيّة، 1974م، ص: 60.76.

(2) .ينظر: التّمهيد في علم اللّغة، محمّد خليفة الأسود، ص: 13.

(3) . باحث وأستاذ جامعيّ في الدّراسات اللّغويّة بجامعة الإسكندريّة، ولد 1937م، بمحافظة الدقهلية، وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة 2003م، في المكان الذي خلا بوفاة الدكتور محمود مختار، وعضو اللجنة الدائمة للترقية إلى وظائف الأساتذة بالجامعات المصرية، وعضو اتّحاد الكتاب المصري، وعضو لجنة الأدب واللّغة بالمجلس الأعلى للثّقافة المصريّة، وعضو لجنة تحقيق التّراث بالمجلس نفسه. ومن أبرز مؤلّفاته: النّحو العربيّ والدّرس الحديث ((بحث في المنهج))، وفقه اللّغة في الكتب العربيّةوالتّطبيق النّحوي، والتّطبيق الصّرفي.توفي يوم الاثنين 26إبريل2010م. ينظر: موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة www.arabicacademy.org.eg/FrontEnd/Members.aspx

(4). ينظر: فقه اللّغة في الكتب العربيّة، د. عبده الرّاجحي، ص: 60.61.

(5)– عالم أمريكيّ متخصص في الإنتربولوجيا واللّسانيات، ولدفي منطقةلوينبرج في ألمانيا الغربية، عام 1848 م،. (ليبورك في بولندا حاليًا)، وانتقل مع أسرته إليالولايات المتحدة وهو في الخامسة من عمره، تلقى علومه في جامعة كولومبيا بنيويورك، وكان له اهتمام بالغ بالدّراسات الهندوأوروبيّة. وحصل على الدّكتوراه في الإنتربولوجيا عام 1909م، وعُيِّن بعد ذلك مديرًا لقسم الإنتربولوجيا في المتحف الوطنيّ الكندي، في أوتارا حيث تابع أبحاثه في مجال اللّغات الأميركو . هنديّة. درّس الإنتربولوجيا في جامعة شيكاغو من عام 1925م إلى عام 1932م؛ ثمّ انتقل إلى جامعة يال، كانت وفاته عام 1936م. ينظر: في طريق علم اللّغة الحديث عند الغربيّين: رواد ومبادئ، توفيق محمّد شاهين، مجلّة اللّسان العربيّ، ع: 26، ص:68.

الاصطلاحيّة ".[1] ولا نكادنقف على فرق جذري بين تعريف ابن جنيّ السّالف الذّكر وتعريف إدوار سابير، باستثناء قوله ((الرّموز الصّوتيّة الاصطلاحيّة)) الذي يلمح إلى نظريّة المواضعة في نشأة اللّغة.[2] ذلك أنّ هذا الأخير انطلق هو الآخر من تحديد وظيفة اللّغة بالإضافة إلى الإشارة إلى أهمّ عنصر فيها، وإن كان لفظ ((أغراضهم)) في تعريف ابن جنيّ أشمل وأدقّ من قول إدوار سابير ((العواطف والأفكار والرّغبات)). على أنّ كلاًّ من محمود السّعران وأنيس فريحة[3] يعترضان على مثل هذه التّعريفات التي تحصر وظيفة اللّغة في توصيل الفكر والعواطف، إذ اللّغة ليست تعبيرًا عن الفكر والعواطف في كلّ استعمالاتها؛[4] وفي ذلك يقول محمود السّعران: " فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار في لغة التّحيات، ولغة التّأوب، ولغة التّدريب، ولغة التّدريب الرّياضي والعسكري مثلاً ".[5]

(1)- مقدّمة لدراسة علم اللّغة، حلمى خليل، ص: 23، نقلا عن: مجلة اللّسانيات، الجزائر، المجلد الأوّل، العدد الأوّل (1971م) ، ص: 32.

(2) . تتعلّق هذه المسألة بالبحث عن أصل اللّغة، وهي بحوث تعتمد. كما يقول عليّ عبد الواحد وافي. على آراء ظنيّة تقوم على الحدس والتّخمين. وقد أصدرت الجمعيّة اللّغويّة الفرنسيّة قانونًا يمنع إلقاء محاضرات عن هذا الموضوع؛ لأنّ النّظريات التي قيلت في صدده لا تفسر أصل اللّغة. لكنّ بعض كتب اللّسانيات ظلت تعرض هذه النّظريات من قبيل العلم بالشيء لا الأخذ به. ينظر: علم اللّغة، عليّ عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، 2000م، ص: 96. 118؛ ونحو عربيّة ميسرة، أنيس فريحة، در الثّقافة، بيروت. لبنان، ص: 41. وفقه اللّغة في كتب العربيّة، عبده الرّاجحي، ص: 77.

(3) . باحث لغويّ من لبنان، من مواليد 1902م، تعلّم في الجامعة الأمريكيّة ببيروت، ثمّ حصل على الدّكتوراه في اللّغات السّاميّة في جامعة شيكاغو، كما درس في ألمانيا شيئًا عن اللّغات الشّرقيّة القديمة، وهو معروف بدفاعه عن العاميّة. توفي 23تشرين الثاني (نوفمبر) 1992. ينظر: الصّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، محمّد الكتّاني، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، ط: 1، 1982م، ج: 2، ص: 1267؛
وhttp://www.4shared.com/account/file/...LKmYQoCKoof6fM

(4) . ينظر: اللّغة والمجتمع ((رأي ومنهج))، محمود السّعران، دار المعارف، الإسكندرية. مصر، 1963م، ص: 12، و16. 18، و24. ونحو عربيّة ميسرة، أنيس فريحة، ص: 34. 36.

(5). اللّغة والمجتمع ((منهج ورأي))، محمود السّعران، ص: 12.

ج – تعريف نعوم تشومسكي[1]NoamChomsky المتمثّل في قوله بأنّها " ملكة فطريّة عند المتكلّمين بلغة ما لتكوين وفهم جمل نحويّة ".[2] وهذا التّعريف على شهرته يغفل الوسائل التي تتجلّى بها اللّغة، واكتفى بالإشارة إلى الطاقة اللّغويّة الكامنة في الفرد المتكلّم.

ويلاحظ أن القاسم المشترك مبدئيّا بين التّعريفات الثّلاث، هو محاولة كلّ منها تحديد وظيفة اللّغة، وبعبارة أخرى تحديد البعد الاجتماعيّ للّغة. وبإمعان النّظر في هذه التّعريفات، يتبيّن أنّ الأوّل والثّاني منها يمتازان عن الأخير بالإشارة إلى الجانب المادّي للّغة وهو ((الصّوت))، كما اختلف الثّاني والثّالث منها عن الأوّل بذكر الطّابع الإنسانيّ والمظهر الإبداعيّ للّغة. ونستخلص من خلال هذه التّعريفات الثّلاث إلى أنّه يمكن الجمع بينها بالقول. ولعلّه يكون أقرب التّعريفات الثّلاث إلى الكمال. بأنّ اللّغة ملكة فطريّة تمكّن الإنسان من التّعبير عن أغراضه وفهم ما يصدر من الآخرين من التّعبيرات بواسطة نظام من الرّموز اللّغويّة يتمظهر أصالةً في الصّوت ونيابةً في الكتابة أو في غيرها.

وإذ ننتقي هذه التّعريفات،فإنّنا نرى أنّ الموقف يستدعي التّطرق، ولو بشيء من الإيجاز، إلى ما بين اللّغة والكلام من فروق، وكان دي سوسير في مقدّمة هؤلاء اللّسانيّين الذين تنبّهوا إلى الفروق الكامنة بينهما. واللّغة عنده هي قدرة الإنسان على التّكلم، وتنفذ إلى حيّز الوجود عن طريق وسائل كثيرة منها الصّوت والكتابة واللّمس، أمّا الكلام فهو نشاط أعضاء النّطق أثناء إنتاج أصوات ذات دلالات لغويّة.[3] وأطلق زعيم المدرسة التّوليديّة نعوم تشومسكي

(1). لسانيّ أمريكيّ من مواليد فيلادلفياPhiladelphia عام 1928، تتلمذ على يد هاريس Z. haris في جامعة بنسلفانيا، وتأثر بجاكبسونJacbson، ويعمل مدرّسا في المعهد التكنولوجي بماساشيوستس Massachusetts منذ عام 1954. وهو مؤسّس المدرسة التّوليديّة التّحويليّة، الذائعة الصيت، وله شهرة على نطاق واسع في مجال السّياسة لانتقاداته المتكرّرة للسّياسة الأمريكيّة. ينظر: الألسنيّة ((علم اللّغة الحديث: المبادئ والأعلام))، ميشالزكرياء، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت. لبنان، ط: 2، 1403 هـ. 1983م، ص: 260؛ وتشومسكي والثّورة اللّغويّة، جول سيرل، مجلّة الفكر العربيّ، 1979م، ع: 8. 9، ص: 123.

(2)–مقدمة لدراسة علم اللّغة، حلمى خليل، ص: 24، نقلا عن: Aspects of the theory of syntax, Chomsky, Massachules, 1965, p: 59 .

(3) .ينظر: التّمهيد في علم اللّغة، محمّد خليفة الأسود، ص: 37.

مصطلحي الأداء Performance والكفاءة Competance مقابلين على التّرتيب لمصطلحي الكلام واللّغة عند دي سوسير.[1]

وممّا لا شكّ فيه أنّ تشومسكي استفاد في تمييزه بين الأداء والكفاءة من ثنائية الكلام واللّغة عند دي سوسير، على أنّ ثمة فرقًا دقيقًا بين هذين العَلمين في إدراك مفهوم هاتين الثّنائيتين. فاللّغة بالنّسبة لِدِي سوسير هي مجرّد مخزن لكلمات وتعابير ثابتة ولازمة لعمليّة الكلام ولا يربط بينها رابط،[2] لكنّها في نظر تشومسكي هي مهمّة المقدرة اللّغويّة المتمثّلة في الأصل في " حفظ قواعد لغويّة، تكفل للإنسان صياغة جمل متكاملة، لا مجرّد خزن كلمات ومفردات لا رابط بينها ".[3]

وكان تمامُ حسّان من أوائل من أدخلوا هذا التّفريق في اللّسانيات العربيّة، بأسلوب إبداعيّ يتجاوز مجرّد النّقل، وذلك بأن فرّق بين مهمّة مستعمل اللّغة أي المتكلّم ومهمّة الباحث فيها بقوله: " اللّغة بالنّسبة للمتكلّم ميدان حركة وبالنّسبة للباحث موضوع دراسة... ".[4]

وإذا كان الكلام هو الأداء واللّغة هي قدرة الإنسان على الكلام، فإنّ ثمة فرقًا بينهما من حيث الوظيفة.فالكلام في رأي عدد كبير من الباحثين عامل أساس في الاتّصال والتّبليغ؛ لكنّ اللّسانيات البيولوجيّة أثبتت من خلال بحوثها أنّ كثيرًا من المرضى المعاقين عن الكلام يفهمون ما يوّجَه إليهم من خطابات، ما يعني أنّهم يمتلكون القدرة اللّغويّة وإنّ كانوا يفتقدون الآليات اللازمة للتّكلم. وتوصّل البحث العلميّ التّطبيقيّ الحديث إلى أنّ الأطفال

(1) . ينظر: رجعة أخرى إلى اللّسانيات البيولوجية ((سبر للتّجربة الأميريكية))، مازن الوعر، المعرفة ((مجلّة ثقافيّة شهريّة تصدرها وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ في الجمهوريّة العربيّة السّوريّة))، سنة 19، ع: 225.226، تشرين الثّاني ((نوفمبر)) وكانون الأوّل ((ديسمبر))، 1980م، ص: 52.53.

(2) . ينظر: اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعيّ ((دراسة في علم اللّغة الحديث))، مصطفى لطفي، معهد الانماء العربيّ، ط: عام 1981م، ص: 29.

(3) .المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

(4) .اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، تمّام حسّان، دار الثّقافة، الدّار البيضاء.المغرب، 1412 هـ.1992م، ص: 5.

الصّغار يملكون كذلك القدرة اللّغويّة وهي تتطوّر تصاعديًّا مع نموّهم البيولوجيّ، على الرّغم من أنّهم عاجزون عن الكلام.[1]

ومن هنا يمكن الاستخلاص إلى أنّ البشر كلّهم مزوّدون بالقدرة اللّغويّة، وإن كان منهم من هو عاجز عن أداء هذه القدرة. ذلك أنّه ما من بشر إلاّ وهو يدرك ما يوجّه إليه من خطاب، سواء أكان هذا الخطاب شفويًّا أم كتابيًّا أم لمسًا.

2/1 ـ مفهوم العلميّة:

أما العلميّة المذكورة في تعريف علم اللّغة السّالف الذّكر،فإنّها تكاد تستمدّ مفهومها من المناهج العلميّة للعلوم التّطبيقيّة والتّجريبيّة – وإن كان لا يخضع للتجربة المعملية باستثناء علم الأصوات –التي يعرّفها بعض الباحثين بأنّها مجموعة من القواعد العامّة التي تنّظم المعلومات والأفكار من أجل الوصول إلى الحقيقة العلميّة.[2]

فالدّراسة العلميّة للّغة هي " دراسة الظّاهرة الإنسانيّة المعروفة في المجتمعات البشريّة باسم اللّغة، بغضّ النّظر عن كونها لغة قوم بعينهم لها خصائصها الفرديّة التي تميّزها عن سائر اللّغات "،[3] وتسعى هذه الدّراسة العلميّة للوصول إلى القوانين العامّة التي تخضع لها لغات العالم بأسرها.[4] وهذه القوانين اللّغويّة مهما بلغت من الدّقة، فليس لها ما للقوانين في العلوم الطّبيعيّة مثلا من الصّرامة،[5] فهي عبارة عن " خلاصات مركّزة تصف ما كان أو ما هو كائن "؛[6] بالاعتماد على فرضيات واضحة، ومصطلحات أو تعابير علميّة أو فنّية دقيقة، وعلم اللّغة. كما يقول نايف خرما. أصبح يعتمد على الوضوح في" عدّة أمور تشترك فيها الدّراسات

(1) .ينظر: رجعة أخرى إلى اللّسانيات البيولوجية ((سبر للتّجربة الأميريكية))، مازن الوعر، مجلّة المعرفة، 1980م، ع: 225. 226، ص: 53.

(2)- ينظر: موسوعة البحث العلميّ وإعداد الرّسائل والأبحاث والمؤلّفات، عبد الفتّاح مراد، بدون معلومات النّشر، ص: 1269.

(3) – مقدمة لدراسة فقه اللّغة، د. حلمى خليل، دار المعرفية الجامعيّة، 2000م، ص: 52

(4). ينظر: المصدر السّابق، ص: 53. وعلم اللّغة، عليّ عبد الواحد وافي، ص: 17.

(5). ينظر: علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربي))، د. محمود السّعران، ص: 12.

(6). المصدر السابق و الصفحة نفسها .

العلميّة جميعًا، كوضوح الفرضيات التي يعتمد عليها البحث، ووضوح الخطوط المتوسطة، وخاصّة إذا كانت فرضيات أخرى تعتمد عليها، ووضوح المصطلحات أو التّعابير الفنيّة أو استعمال كلّ منها بمعنى واحد طيلة فترة البحث، مع أنّ البحث اللّغويّ يشترك مع العلوم الأخرى في هذه الخاصّية ومكوّناتها المختلفة ".[1]

أمّا ما ذهب إليه مصطفى لطفي من أنّ الكلمة والجملة صارتا تدرسان في ظلّ لغويّات دي سوسير كما يدرس الكيمياء المعادلات،[2] ففيه نوع من المبالغة، ذلك أنّ تحليل الكلمة أو الجملة في شكل المعادلات لا يعدو توزيعها لغويًّا على الأبواب النّحويّة أو الصّرفيّة بصورة لا تختلف كثيرًا في معظم الأحيان عن التّحليل الإعرابي في النّحو القديم. على أنّ علم اللّغة اكتسب الطّابع العلميّ بدراسته اللّغة من وجهة النّظر الآنيّة على النّمط الذي تدرس عليه موضوعات العلوم الأخرى لغرض الكشف عن النّظام اللّغويّ.[3]

ويتّضح مما سبق، أنّ موضوع علم اللّغة الحديث وهدفه يشكلان أهمّ الخصائص التي تميّز الدّراسات اللّغوية الحديثة عن الدّراسات اللّغويّة التّقليديّة،[4] سواء عند العرب أو عند الفيلولوجيّين[5] في الغرب. فقد كانت هذه الدّراسات التّقليديّة تدرس اللّغة لأهداف لا تمتّ بصلة إلى اللّغة، فهي دينيّة تارّة، واجتماعيّة تارّة ثانيّة وقوميّة تارّة ثالثة. ومع ذلك، فقد كان

(1) .أضواء على الدّراسات اللّغويّة، نايف خرما، عالم المعرفة، الكويت، رمضان. شوال 1398 هـ. سبتمبر (أيلول) 1978م، ص: 125.

(2) .ينظر: اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعيّ، مصطفى لطفي، ص: 22.

(3) .ينظر: فردناند دو سوسور مؤسّس علم اللّغة الحديث، نجيب غزاوي، ص: 90.

(4) . الدّراسات اللّغويّة التّقليديّة في المفهوم الغربيّ تنتظم الدّراسات اللّغويّة السّابقة لوصفية دي سوسيرDe saussure، وتقابلها النّظريّات اللّغويّة الحديثة. وقد تبنى هذا المفهوم كثير من اللّغويّين العرب المحدثين –وفي مقدّمتهم عبد الرّحمن أيّوب – فنعتوا التّراث اللّغويّ العربيّ بالتّقليديّة في مقابل ما تلقوه من نظريات لغويّة حديثة في الغرب. ينظر: العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية – مصر، ص: 168.

(5) .وهم علماء فقه اللّغة الغربيّون، كان معظمهم يدرسون اللّغة لأهداف غير لغويّة.

لهذه الدّراسات التقليديّة فضل عظيم. لا يمكن إنكاره. على علم اللّغة الحديث، إذ لولاها لما توصل هذا العلم إلى وضع أسس علميّة لدراسة اللّغة.[1]

3/1 ـ استقلاليّة علم اللّغة:

كان دي سوسير يسعى إلى جعْل اللّغة موضوعًا يُدرس لذاته، بعيدًا عن تأثيرات العلوم الأخرى كالفلسفة على سبيل المثال. وكان هذا الهدف بمثابة أرضية صلبة انطلق منها دي سوسير لتحديد موضوع علم اللّغة حين قال بأنّه " دراسة اللّغة فى ذاتها ولذاتها ".[2]

وبعد أن حدّد هذا الرّائد اللّغويّ موضوع العلم الذي يسعى لشقّ طريقه ووضع أسسه، وهو علم اللّغة، فإنّه حاول أن يتجاوز بالبحث اللّغويّ تخوم الدّراسات التّاريخيّة والمقارنة التي كانت تنحصر في وضع معايير وقواعد لغويّة؛ فانطلق بهذا العلم الحديث إلى فضاء جديد يستقصي فيه تراكيب اللّغات الإنسانيّة وخصائصها استقصاءً علميًّا قائمًا على أسس علميّة ومنهجيّة موضوعيّة مستقلّة.[3]

وينبغي ألاّ يفهم من استقلاليّة علم اللّغة الحديثأنّه ينفرد بالبحث اللّغويّ وينفصل عن العلوم التي لها اهتمام باللّغة، فالاستقلاليّة في حقّ هذا العلم تتمثّل في تبنّي رؤى جديدة متجدّدة ومناهج علميّة تمكّن من تناول اللّغة بالدّراسة على أسس حديثة ومتطوّرة.[4]

فعلم اللّغة الحديث كسائر العلوم، إذ لا يستغني عن النّتائج التي يسفر عنها كلّ من علم النّفس والتّربيّة وعلم الاجتماع في شأن اللّغة، بل يلتقي مع علم النّفس فيستفيد كلٌّ من بحوث الآخر واستنتاجاته. وعلاوة على ذلك، تشكّل ملتقيات علم اللّغة وعلم النّفس فرعًا من فروع علم اللّغة يعرف بعلم النّفس اللّغويّ، كما أنّ علم اللّغة يلتقي مع علم الاجتماع في

(1)- ينظر: مقدّمة لدراسة فقه اللّغة، حلمى خليل، ص: 53.

(2). دروس الألسنيّة العامّة، فردينان دي سوسير، تر: محمّد الشّاوس ومحمّد عجينة، ص: 347.

(3) .ينظر: اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، ص: 23.

(4). ينظر: المصدر السّابق، ص: 43. وعلم اللّغة، عليّ عبد الواحد وافي، ص: 14.13 و31.

مباحث مشتركة تتناول بالبحث العلاقة القائمة بين اللّغة والمجتمع، ويطلق على هذا المجال البحثي علم الاجتماع اللّغويّ.[1]

هذا، ويعود الفضل في ربط البحوث اللّغويّة بالبحوث الأخرى التي قد يجمعها عامل الموضوع أو المنهج إلى اللّغويّ الأمريكي إدوار سابيرEdouard Sapir، الذي كرّس جهوده من أجل إخراج البحث اللّغويّ " من انكماشه وانغلاقه في حدود دراسة اللّغة مجرّدة من العوامل المؤثّرة فيها ".[2]

وإذا كان العلم ـ أيًّا كان مجاله ـ لا يستقلّ إلاّ بعد نضجه واكتماله، فإنّ اللّسانيات المعاصرة كما يقول عبد السّلام المسدّي بلغت مبلغ العلم المتكامل على الرغم من قصر عمرها. ومن مظاهر نضجها إفرازها الثّبت الاصطلاحي الخاصّ بها، وهو أوّل مظهر من " مظاهر استقلال العلم بنفسه وتكامل رصيده الفنيّ "؛[3] بالإضافة إلى محاولة روّادها ضبط فلسفتها التّأسيسيّة وتأصيلها فتنظيرها، وذلك بتناول خبايا التّراث اللّغويّ بالبحث والتّنقيب بغية الوقوف على أسرار اللّسانيات الحديثة من جهة وتقييم ما خلفه التّفكير التّاريخي من نتاج لغوي برؤى حديثة من جهة أخرى.[4]

وفيما يخصّ اللّسانيات العربيّة، فإنّها كادت تظفر بالمظهر الثّاني، أمّا المظهر الأولّ المتمثل في إفراز الثبت الاصطلاحي، فإنّها ـ كما يقول أحمد مختار عمر ـ " ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية، وما يزال التّأليف المعجميّ في المصطلحات الحديثة في طور التّكوين مقارنا بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللّغة العربيّة ".[5]

---

(1). ينظر: اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، ص: 43.

(2) . المصدر السّابق، ص: 44. 45.

(3) . التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدّي، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1981م، ص: 13.

(4) . المصدر السّابق، ص: 14.

(5) . محاضرات في علم اللّغة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ص: 24.

2 ـ نشأته:

حقّا إنّ الخليل[1]وسيبويه[2] كانا أبعد علماء العربيّة أثرا في التّفكير اللّغويّ العربيّ، إذ استطاعا أن يقدّما للّغويّين من بعدهم نموذجا بنيويا متكاملا وصفا من خلاله اللّغة العربيّة صوتيّا وصرفيا ونحويّا ومعجميّا، ولمّا يستطع أحد أن يقدّم بديلا عنه.[3]

فكتاب سيبويه الذي اشتهر بين النّاس باسم ((الكتاب))، والذي يعدّ حصيلة الجهود العلميّة التي بذلت منذ البشائر الأولى للتّفكير اللّغويّ عند العرب، من عصر أبي الأسود الدّؤلي،[4] إلى عصر سيبويه، يحتضن بين دفتيه مباحث صوتيّة بشقيها الفونيتيكي

(1) – هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، عنه أخذ سيبويه النّحو، وكان إماما فيه، وهو مستنبط علم العروض ومؤلف معجم العين المشهور. كانت ولادته عام 100هـ ووفاته عام 170 هـ وقيل 175 هـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ابن خلكان، ج: 1، ص: 310 – 311. ومعجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت. لبنان، 1411 هـ. 1991م، مج: 3، ص: 300. 301.

(2) –هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبَر، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل: آل الرّبيع بن زياد الحارثي، من أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنّحو، توفي بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء في سنة 180 هـ وقيل سنة 177 وعمره أربعون سنة ونيف. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ابن خلكان، ج: 2، ص: 220 – 221.

(3) – العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 22 و25.

(4) – هو ظالم بن عمر بن سفيان بن جَندَل بن يعمر بن حِلس بن نفاثة بن عدي بن الدّيل بن بكر بن الديلي، ويقال: الدّؤلي بضم الدّال المهملة وفتح الهمزة بعدها لام؛ نسبة إلى الدّئل وهي قبيلة من كنانة، وفي اسمه ونسبه ونسبته اختلاف كثير، كان من سادات التّابعين وأعيانهم. وهو بصري، وأوّل من وضع النّحو، توفي بالبصرة عام 69 في طاعون الجارف، وعمره 85 سنة، وقيل إنّه توفي قبل بعلة الفالج، وقيل إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، في رجب عام 101 هـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ابن خلكان، ج: 1، ص: 441. 443.

والفونولوجي،[1] ومباحث صرفية ونحوية، في حين سدّ الثّغرة المعجميّة معجم العين للخليل.[2]

ومع أنّ الدّراسات اللّغويّة العربيّة، والنّحويّة منها على وجه الخصوص، قد ظفرت بعد سيبويه بعلماء لهم باعٌ طويل في التّأليف، فإنّهم لم يخرجوا في مؤلفاتهم عمومًا على منهج سيبويه، فكانت جلّ أعمالهم شروحًا وتعليقات واستدراكات على ما جاء في كتاب سيبويه، أو تبديلَ مصطلحاتٍ اسميّة أو اختيارات تعليليّة، أو إعادة ترتيب وتبويب.[3]

وظلّت الأمصار التي كانت قبلةً لطلاب النّحو على مرّ تاريخ الدّراسات اللّغويّة العربيّة، من الكوفة وبغداد والأندلس ومصر تحلّل النّصوص اللّغويّة في ضوء أصول النّحو البصريّ[4] من دون اعتراض ذي بال يذكر، بل عملوا على حشوها بالمنطق الصّوري، بعد

(1) – الفونتيكphonetique ويقابله في العربيّة مصطلح ((علم الأصوات)) و هو " علم دراسة وتحليل وتصنيف الأصوات، متضمنا دراسة إنتاجها وانتقالها وإدراكها ". الأصوات ووظائفها، محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح، ص: 13؛ نقلا عنDictionary of linguistics، ماريو باي وفرنك غينور. وفونولوجيا، مصطلح لغويّ معاصر، له أكثر من مقابل في العربيّة، منه على سبيل المثال: علم وظائف الأصوات وعلم الأصوات اللّغويّة الوظيفيّ والتّشكيل الصّوتي، وهو " دراسة التّغيرات والتّحوّلات والتّعديلات وغيرها مما يطرأ على أصوات الكلام، خلال التّاريخ، وكذلك التّطوير الذي يصيب أي لغة أو لهجة بعينها، على اعتبار أنّ كل وحدة صوتية مميزة في ضوء الدّور الذي يقوم به في تركيب أشكال الكلام، مع التّسليم بأنّها وحدة دونما مراعاة لطبيعتها الصّوتيّة الفيزيائيّة. المرجع السّابق نفسه، ص: 130؛ نقلا: Pet, M. & Gaynor, F., p. 168.

(2) – ينظر: محتويات الكتاب ومعجم العين، والعربية وعلم اللّغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 23.

(3) .ينظر: ابن مضاء ومنهجه النّحويّ ((رسالة الماجستير))، إعداد: باكزه رزق محمود زمو، إشراف: عبد الجواد الطّيب، جامعة الفاتح، كليّة التّربيّة، قسم اللّغة العربيّة والدّراسات الإسلاميّة، عام 1983م، ص: 21؛ وتاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، محمّد المختار ولد أباه، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتّربيّة والعلوم والثّقافة ((إيسيسكو))، 1417 هـ.1996م، ص: 19.

(4).وهي النّقل والقياس والإجماع واستصحاب الحال، وسيأتي الحدث عنها لاحقًا.

شيوعه جراء حركة التّرجمة في العصر العباسيّ، . باستثناء ثورة ابن مضاء[1] على المنهج البصريّ[2] . الأمر الذي انعكس سلبا على منهج النّحو العربيّ، فظلّ حبيس التّعليقات والشّروح، يتلقفه أصحاب الحواشي والمتون، امتدادا من القرن الرّابع الهجري حتى أوائل العصر الحديث.[3]

وكان قيام الدّراسات اللّغويّة على الأصول البصريّة مدعاة لبعض الباحثين إلى الاعتراض على من يقولون بوجود مدارس نحويّة،[4] إذ يرون أنّ النّحو العربيّ مبنيّ على منهج واحد وأصول ثابتة وأدوات معروفة، وممّن يميل إلى هذا الرّأي عليّ مزهر الياسريّ وغيره من الباحثين[5]، حيث يقول: "وما الخلاف الحاصل بين النّحاة إلاّ خلاف في طبيعة استعمال هذه

(1) – هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللّخمي القرطبي، ولد بالقرطبة سنة 513 ه وتوفي بإشبيلية سنة 592 ه، قاضي مدينة فاس ثم قاضي الجماعة على عهد دولة الموحّدين، ومن أشهر مؤلّفاته: الرّدّ على النّحاة. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، الإمام جلال الدّين السّيوطيّ، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت. لبنان، ج: 1، ص: 232.

(2)- ينظر: كتاب الرّد على النّحاة، ابن مضاء، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط: 3، ص: 76 و82 و130 و134 و135 و138 و141.

(3) – ينظر: العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 47.

(4) . ينظر: المدارس النّحويّة، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر. القاهرة، ط: 2؛ ومدرسة البصرة النّحويّة ((نشأتها وتطوّرها))، عبد الرّحمن السّيد، دار المعرف مصر، ط: 1؛ والمدرسة البغداديّة في تاريخ النّحو العربيّ، د. محمود حسيني محمود، مؤسسّة الرّسالة، بيروت. لبنان، 1407 ه. 1986؛ ومدخل إلى اللّسانيات العامّة والعربيّة ((المنهج الوصفيّ الوظيفيّ))، جعفر دك الباب، الموقف الأدبيّ ((مجلّة أدبيّة شهريّة يصدرها اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق . سوريا))، ع: 135 . 136، تموز ((يوليو)) آب ((أغسطس)) 1982م، ص:44. وضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربيّ، بيروت. لبنان، ط: 10، ج 2، ص: 294.

(5) . ينظر: المدارس النّحويّة ((أسطورة أو واقع))، إبراهيم السّامرائيّ، دار الفكر، عَمّان، ط: 1، 1987م، ص: 12. 13؛ وتقويم الفكر النّحويّ، عليّ أبو المكارم، دار الثّقافة، بيروت. لبنان، ص: 243. 244.

الأدوات والنّتائج التي يتوصل إليها بها في أجزاء الدّرس، لا في حقائقه الكليّة ".[1] وعليه، كان من الأولى أن يطلق عليها اسم ((التجمّعات اللّغويّة)) على حدّ قول عليّ أبي المكارم.[2]

وإذا كان مصطلح ((المدرسة)) في مفهومها الحديث لا يطلق إلاّ على ما له أصول نظريّة مستقلّة وأسس مغايرة لأسس غيرها من المدارس،[3] سواء أكانت لغويّة أم فلسفيّة أو غيرها؛ فإنّ الباحث من جانبه يرى أنّ هذا المصطلح لا يصدق على اتّجاهات البحث اللّغويّ العربيّ القديم إلاّ تجاوزًا؛ لأنّ النّحو العربيّ في بيئاته المختلفة يجمعه منهج واحد. ومن هنا، نؤكّد على ما ذهب إليه عليّ مزهر الياسريّ من أنّ هذا الإطلاق كان على أساس اختلاف البيئات لا على أساس اختلاف الأصول.

ولا يعني هذا الرّأي الذي نقول به أنّ النّحو العربيّ ظلّ على مرّ العصور كما كان على عهد نشأته، بل عرف هذا النّحو اتّجاهات جديدة في تناول مسائله، لكنّ ذلك كلّه كان يدور في فلك أصول النّحو البصريّة.

هذا، وقد شهدت بدايات العصر الحديث محاولات كثيرة لإنقاذ النّحو العربيّ، فما لبثت أن ظهرت فيها دعوات إصلاح النّحو وتيسيره، حمل لواءها رفاعة الطّهطاويّ،[4] الذي قام

---

(1) .الفكر النّحويّ عند العرب ((أصوله ومناهجه))، عليّ مزهر الياسر، الدّار العربيّة للموسوعات، ط: 1، 2003م. 1423 هـ، ص: 368.

(2). الظّواهر اللّغويّة في التّراث النّحوي، عليّ أبو المكارم، دار غريب، القاهرة. مصر، ط: 1، 2006م، ص: 96.

(3) .ينظر: .الفكر النّحويّ عند العرب ((أصوله ومناهجه))، عليّ مزهر الياسري، ص: 363.

(4) – ينظر: التّفكير اللّغويّ بين القديم والجديد، كمال بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة. مصر، ص: 496؛ وفي إصلاح النّحو العربيّ ((دراسة نقديّة))، عبد الوارث مبروك سعيد، ص: 60. وهو رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، يصل نسبه بالحسين السبط، عالم مصري، من أركان النّهضة العلميّة المصريّة في العصر الحديث، ولد عام 1216 هـ الموافق عام 1801م. رحل إلى القاهرة عام 1223 هـ والتحق بالأزهر للتّحصيل، ثم أرسلته الحكومة المصريّة إماما للصّلاة والوعظ مع بعثة من الشّبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وترجم عنها كتبا كثيرة منها: مبادئ الهندسة. توفي في القاهرة، عام 1290 هـ الموافق 1873م. ينظر: الأعلام ((قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين))، خير الدّين الزّركلي، دار العلم للملايين، ط: 6، 1984م، ج: 3، ص: 29.

بعرض النّحو من خلال كتابه ((التّحفة المكتبيّة لتقريب اللّغة العربيّة)) عرضا حديثا بعيدا عن طرق المتون والشّروح، ولعله قريب من المؤلّفات النّحوية الفرنسيّة التي نالت إعجابه أثناء بعثته إلى فرنسا. وقد يمثّل توجّه رفاعة هذا، في دراسة النّحو، اتّصال الفكر اللّغويّ العربيّ بالفكر اللّغويّ الغربيّ لأوّل مرّة، لكن بالشّق التّقليديّ منه، إذ لمّا ينشأ علم اللّغة الحديث بمفهومه العلميّ وقتئذ، بالإضافة إلى أنّ الأهداف التي كان يرمي إليها رفاعة أهداف حضاريّة صرفة.[1]

وتواصلت دعوات إصلاح النّحو وتيسيره منذ تلك الحقبة من الزّمن إلى يومنا هذا،[2] وسارت جنبا إلى جنب مع دعوات تجديد النّحو التي تأخرت عنها ظهورا، والتي كانت من باكورة ثمارها كتاب ((إحياء النحو))[3] لإبراهيم مصطفى،[4] غير أن حركة التّجديد نفسها لم تتأثر بعلم اللّغة على تنوّع اتّجاهاته: التّاريخي والمقارن والوصفيّ إلاّ قليلا، على الرّغم من أنّ هذا العلم كان قد وجد طريقه إلى الجامعة المصريّة قبيل ظهور حركة التّجديد .[5]

ومما يؤاخذ به هذه الحركة التّجديديّة، أنّها كانت بعيدة عن عناصر التّجديد ومقوّماته " إذا ما فهمنا التّجديد على أنّه دعوة لإعادة وصف اللّغة العربيّة وفق أصول نظريّة وعلميّة

(1) – ينظر: العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 59 و60 و139.

(2) – ومن الكتب التي ألفت لهذت الغرض مثلا: النّحو الواضح لعليّ جارم ومصطفى أمين، مطبعة المعارف، ط: 2، 1932م؛ والنحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط: 5.

(3). وممن كتب في هذا الاتجاه: وزارة المعارف المصرية 1938م، ويعقوب عبد النبي 1941–1954م، وأمين الخولي 1943م، وشوقي ضيف 1947 و198م، ومهدي المخزومي 1966م.

(4) – من كبار ناقدي التّراث اللّغويّ في العصر الحديث، ولد عام 1888م، بدأ دراسته النّظاميّة في الأزهر الشّريف بعد أن أتمّ حفظ القرآن الكريم وتجويده، ثمّ التحق بدار العلوم وتخرج فيها عام 1910م، وتدرج بعد ذلك في التّدريس حتى رقي عام 1947م أستاذًا كرسيًّا للنّحو والصّرف والعروض في دار العلوم. وانتخب لعضويّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة عام 1949م. كان له نشاط علميّ ملحوظ، ومن أشهر مؤلّفاته كتابه: إحياء النّحو. توفي عام 1962م. ينظر: موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة www.arabicacademy.org.eg/FrontEnd/Members.aspx

(5) – ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي،حلمى خليل، ص: 60.61.

جديدة، أي وضع نموذج وصفيّ يخالف النّموذج البصريّ ويتعامل مع التّغير الذي طرأ على العربيّة منذ أن وضعت البصرة أصولها ومنهجها في تحليل ودراسة هذه اللّغة ".[1]

وأما اتصال الدّراسات اللّغويّة العربيّة بالدّراسات اللّغويّة الغربيّة الحديثة، خصيصا التّاريخيّة والمقارنة منها، فإنّه يرجع على وجه التّقريب إلى عام 1886م، عندما نشر جورجي زيدان[2] كتابيه المعنونين على التّوالي بـ((الفلسفة اللّغويّة والألفاظ العربيّة)) و((اللّغة العربيّة كائن حيّ))، وفي الوقت نفسه، كانت مجلة المقتطف تنشر مقالات ذات علاقة بعلم اللّغة التّاريخي المقارن.[3]

وما أن أنشئت الجامعة الأهلية في مصر عام 1908م حتى أولت اهتماما جدّ عظيم لهذا العلم الحديث النّشأة، لاسيما بعدما أصبحت حكوميةً عام 1927م، فقرّرت تدريس علم اللّغة التّاريخيّ والمقارن في قسم اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقيّة بكليّة الآداب، ما حفزهم إلى استقطاب عدد كبير من المستشرقين، كان معظمهم من الألمان، ليتولّوا قيادة البحث اللّغويّ الحديث أساتذة ومنظّرين، وتتلمذ على أيديهم مجموعة من اللّغويّين العرب.[4]

وكان في مقدّمة هؤلاء الأساتذة المستقطبين برجشتراسر[5] الذي أدّى دورا رائعا في تنظير وترويج المنهجين التاريخي والمقارن وبذل جهدا رائدا في تطبيقهما على اللّغة العربيّة في كتابه

---

(1) - المصدر السّابق، ص: 47 – 48.

(2) – كاتب وأديب ومؤرخ من رواد الصحافة والتأليف. لبناني المولد مصري النشأة. ولد فيبيروت، سنة 1278 هـ. 1861، ثم هاجر لمصر سنة 1883م، حيث أنشأ في سبتمبر 1892م مجلةالهلالوقام بتحريرها بنفسه. ويعدّ من أهمّ أعلام النّهضة العربيّة وأفرهم إنتاجًا وتوفيسنة 1333هـ. 1914م. ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة والعلوم، دار الجيل، بيروت. لبنان، ط: 1، 1427 هـ. 2006م، ج: 11، حرف الزّاي، ص: 430. 432.

(3) - ينظر: مقدمة لدراسة فقه اللغة، حلمى خليل، ص: 70.

(4) - العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 139 – 140.

(5) - مستشرق ألمانيّ، من مواليد عام 1886م، نال درجة الدّكتوراه من جامعة لبيزيج الألمانيّة عام 1911م، ودرجة الأستاذيّة في اللّغات السّاميّة والعلوم الإسلاميّة عام 1912م. وقدم مصرَ أستاذًا زائرًا وألقى في جامعة القاهرة، خلال عامي 1931. 1932م، سلسلة محاضرات في تطوّر النّحو في اللّغة العربيّة، ومحاضرات في قواعد نشر النّصوص العربيّة. توفي عام 1933م. ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقيّ، دار المعارف، القاهرة. مصر، 1980م، ج: 2، ص: 450.

((التّطوّر النّحوي للّغة العربيّة))، إضافة إلى أنه كان يلمح إلى مبادئ المنهج الوصفيّ تحت مصطلح ((النّظاميّة)) مع ذكر الفرق بين المنهجين التّاريخيّ والوصفيّ.[1]

هذا، ولم يكن لجهود براجشتراسر وغيره من المستشرقين صدى كافٍ للفت النّظر إلى المناهج الحديثة في دراسة اللّغة، إلى أن ظهر كتابا عليّ بن عبد الواحد وافي[2] ((علم اللغة)) و((فقه اللغة)) عام 1940م،اللّذان يحملان . كما يقول حلمى خليل . خلطا كبيرا بين علم اللّغة التّاريخيّ والمقارن وعلم اللّغة الوصفيّ، وبالتّحديد في الفصل الذي عقده لمناهج وتاريخ البحوث اللّغويّة في كتابه ((علم اللّغة))،[3] والمتأمّل فيما يحويه هذان الكتاب يلفى الأمر على ما قاله؛ علاوة على أنّه كان يقدّم " بطريقة تفتقر إلى المنهجية والوضوح فروع علم اللّغة كما كانت معروفة في أوربا خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين ".[4]

---

(1)- التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة، براجشتراسر، تح وتص وتع: رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط: 3، 1417هـ - 1997م، ص:7.

(2) – رائد علم الاجتماع في جامعات الوطن العربيّ، وخاصة السّودان والجزائر والمغرب والمملكة العربيّة السّعودية.ولد في 3 من مارس 1901م في أم درمان بالسّودان. وعند عودة الأسرة إلى مصر التحق بمدرسة ابتدائية قضى فيها أربع سنوات: من 1906م حتى 1910م، ثم التحق بالأزهر سنة 1915م، وواصل الدّراسة فيه حتى سنة 1921م، التحق بعد ذلك بدار العلوم بعد أن اجتاز امتحان القبول بتفوق، وكان في مقدّمة الناجحين. وتخرج فيها سنة 1925م وكان أوّل فرقته، فأوفدته وزارة المعارف في بعثتها إلى جامعة السّوربون بباريس، فقضى بها نحو ست سنوات حصل في أثنائها على درجة اللّيسانس في الفلسفة والاجتماع سنة 1928م، وحصل على درجة الدّكتوراه مع مرتبة الشّرف الأولى في مايو عام 1931م. وللدّكتور علي عبد الواحد وافي دور في التّعريف بعلم اللّغة وفقهها لا يقل عن دوره في علم الاجتماع؛ فهو أوّل من كتب في (علم اللّغة) Linguistique بالعربيّة، وفي هذا الكتاب عَرَّف بهذا العلم وبمناهجه وبفروعه ومسائله. وله كتبٌ أخرى رائدة في بابها ظهرت في وقت مبكر، وما تزال نشراتها تتوالى حتى اليوم ومن أهمّها: فقه اللّغة، واللّغة والمجتمع، ونشأة اللّغة. توفي عام 1991م. ينظر: موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة www.arabicacademy.org.eg/FrontEnd/Members.aspx

(3) – ينظر: علم اللّغة، عليّ عبد الواحد وافي، ص: 14 و33 – 68؛ والعربيّة وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 140.

(4) – العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 142. 143.

وأغلب الظّنّ أنّ عليّ بن عبد الواحد وافي كان " يفهم من مصطلح علم اللّغة أنّه يختص بالدّراسة التّاريخيّة المقارنة دون علم اللّغة الوصفيّ "،[1] ويبدو ذلك واضحا من موضوعات الكتاب، إذ يتّصل معظمها بدراسة التّطوّر اللّغويّ وفصائل اللّغات واللّهجات والصّراع اللّغويّ، إذا استثنينا من ذلك دراسة الأصوات والدّلالة بالرّغم من غلبة الطّابع التّاريخيّ عليها.[2]

ومع هذا كلّه، فإنّ كتاب ((علم اللّغة)) لم يخل من أفكار ومبادئ تمت بالصّلة إلى علم اللّغة الوصفيّ، منها التّفريق بين اللّغة المنطوقة واللّغة المكتوبة وتقسيم مستويات التّحليل اللّغويّ إلى مستويات صوتيّة وصرفيّة ونحويّة ودلاليّة.[3] أمّا كتابه ((فقه اللّغة)) فقد أعدّه إتمامًا للكتاب الأوّل ((علم اللّغة)).[4]

وظلّ كتابا عليّ بن عبد الواحد وافي المذكوران سلفا، مرجعين أساسين للتّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث في الوطن العربيّ، وبخاصّة في الجامعة الأهليّة بمصر، مهد النّهضة العربيّة الحديثة، إلى أن عاد إبراهيم أنيس[5]، وهو أوّل مبعوث مصريّ – وربّما عربيّ – لدراسة علم

(1)- المصدر السّابق، ص: 145.

(2) - ينظر: المصدر السّابق، ص: 145 – 146.

(3) – ينظر محتويات الكتاب المذكور.

(4). ينظر: فقه اللّغة، عليّ عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط: 2، 2000 م، ص: 5.

(5) –رائد لسانيّ في الوطن العربيّ، ولد عام 1906م، حصل على الدّبلوم العالي من دار العلوم العليا عام 1930م. وفي 1933م فاز في المسابقة التي عقدتها وزارة المعارف لاختيار أعضاء بعثة دراسيّة إلى إنجلترا للحصول على الدّكتوراه؛ فحصل على البكالوريس من جامعة لندن عام 1939م، ثمّ على الدّكتوراه من الجامعة نفسها عام 1941م. عمل مدرّسًا بعد عودته إلى مصر في كلّ من كليّة ودار العلوم وجامعة الإسكندريّة وجامعة الأردن. وعيّن عميدً لكليّة دار العلوم عام 1955م ثم عام 1958م. حصل على جائزة الدّولة التّشجيعية في سنة 1958م عن كتابه "دلالة الألفاظ اللّغويّة" واختير خبيرًا بالمجمع منذ سنة 1948م، ونال عضوية المجمع سنة 1961م. لإبراهيم مؤلّفات قيّمة في ميدان اللّسانيّات، ومنها: الأصوات اللّغويّة، ومن أسرار اللّغة العربيّة، وفي اللّهجات العربيّة، ودلالة الألفاظ. وتوفي عام 1977م. ينظر: موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرةwww.arabicacademy.org.eg/FrontEnd/Members.aspx، وموسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثّقافة والعلوم، دار الجيل، بيروت . لبنان، ط: 1، 1425 هـ . 2004م، ج: 2، ص: 514. 517.

اللّغة الحديث دراسة التّخصص في انجلترا. وكان اهتمامه بالجانب التّطبيقيّ يفوق بكثير اهتمامه بالجانب التّنظيري، ويتجلّى ذلك بوضوح في محاولاته لإعادة قراءة التّراث اللّغوي العربيّ، نقدًا وتحليلا، على ضوء المناهج اللّغويّة الحديثة، وقد خلف إثرها آثارا علميّة طريفة بين بحث وكتابلقراءالعربية.[1]

وعلى خلاف عليّ عبد الواحد وافي، كان إبراهيم أنيس يفرق بين علم اللّغة التّاريخيّ وعلم اللّغة الوصفيّ، " على الرّغم من أنّ التفكير اللّغويّ الغربيّ لم يكن قد استقر بعد على مفهوم واضح لهذين المنهجين في الدّراسة اللّغويّة "،[2] ولعلّ ذلك ما يشفع له اختصاره في بيان الفرق بين المنهجين. حسب رأينا. مع أنّ الأمر من دون شكّ، " كان يحتاج إلى فصل بيان أكثر من ذلك، ولكن عبء تفسير وشرح هذين المنهجين وقع على كاهل تلاميذه من بعده ".[3]

وأمّا المآخذ التي يمكن الطّعن بها في أعمال إبراهيم أنيس، فهو استعماله بعض المصطلحات اللّغويّة القديمة لمدلولات لغويّة حديثة؛ لما يترتّب على ذلك من غموض ولبس، بالإضافة إلى أنّه لم يكن يخوض بالتّفصيل الحديث عن النّظريّات اللّغويّة الحديثة في الغالب. وربّما كان يشفع له المأخذ الثّاني – زيادةً على ما سبق – شعوره العميق " بأنّه يشقّ طريقًا جديدًا في التّفكير اللّغويّ العربيّ، فلم يشأ أن يخوض في تفاصيل دقيقة قد تحول دون تقديم الإطار العام لهذا الفكر الجديد ".[4]

ولا يمكن لنا. ونحن نتتبّع البدايات الأولى لاتّصال التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث بالفكر الألسنيّ. أن نتغاضى عن كتابين تُرجما في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين إلى العربيّة؛ لما كان لهما من أثر بالغ ودور فعّال في تعريف القارئ العربيّ بمبادئ الفكر الألسنيّ. أوّلهما: ((منهج البحث في الأدب واللّغة))، وقد ترجمه محمد مندور عام 1946م، حيث يظهر في

(1) – ومن كتبه التي اعتنت بمعالجة التراث وفق معطيات النظريات اللغوية الحديثة ما يأتي: الأصوات اللّغويّة 1947، وموسيقى الشعر، وفي اللهجات العربية.

(2) – العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلمى خليل، ص:150.

(3) – المصدر السّابق، ص: 154.

(4) – المصدر السّابق، ص: 162.

المقال الثّاني المعنون بـ ((علم اللّسان)) -وكاتبه أنطوان مييه[1]- لأوّل مرة و" بشكل واضح منهجُ التّحليل البنيويّ إلى مستوياته المختلفة وطبيعة العلاقة بين هذه المستويات ".[2] وثانيهما كتاب ((اللّغة)) لفندريس. وهو كسابقه، في أنّه يعمد إلى تحليل اللّغة تحليلا بنيويًّا. وقد ترجمه عبد الحميد الدّواخي ومحمد القصاص.[3]

وعلى قلّة هذه الكتب السّالفة الذّكر، توّفرت لدى القارئ العربيّ لأوّل مرّة مصادر ومراجع تمكّنه من الاطّلاع على مبادئ التّفكير اللّغويّ الغربيّ الحديث، كما كانت عاملا مساعدا لظهور مؤلّفات تناولت الحديث عن النّظريّات اللّغويّة الحديثة بأكثر دقّة وعمقا في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين، على يد من يمكن وصفهم بجيل الوصفيّين العرب،[4] وهو البؤرة المركزيّة لهذا البحث.

3 ـ أصوله الفكريّة والفلسفيّة:

بما أن التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث، قائم على مجموعة من آليات غربيّة توجّهها أصول فكريّة، ذات صبغة فلسفيّة،[5] فإنّه من الأحرى محاولة استكشاف هذه الأصول الفكريّة والفلسفيّة التي تعد منطلقا لهذه الآليات، المتمثّلة في المنهج المقارن والمنهج التّاريخيّ والمنهج الوصفيّ، التّصنيفيّ منه والتّفسيريّ. ومن الأصول الفلسفيّة لهذه المناهج اللّغويّة ما يأتي:

(1) – لسانيّ فرنسيّ، ولد عام 1866م، والتحق عام 1886م بمعهد الدّراسات العليا في باريس، حيث استمع إلى دروس دي سوسير، وحلّ محلّ هذا الأخير في تدريس اللّسانيات فيما بعد؛ توفي عام 1936م. ينظر: في طريق علم اللّغة الحديث عند الغربيّين: رواد ومبادئ، توفيق محمود شاهين، مجلة اللّسان العربيّ، ع: 26، ص: 73.

(2) – العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 163.

(3) – ينظر: المصدر السّابق، ص: 164.

(4) – العربيّة وعلم اللّغة البنيوي، حلميخليل، ص: 166. ومن أعلام هذا الجيل: تمام حسان وعبد الرحمن أيوب وكمال بشر ومحمود السّعران.

(5). مدخل لسانيات دي سوير، حنون مبارك، ص: 7.8.

1/3 ـ نظرية النّشوء والارتقاء:

إن نظريّة داروين المتولّدة عن النّظريّة البيولوجيّة للتّطور، التي نشأت إثر الاهتمام المتزايد بالتّاريخ الطّبيعيّ في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر،[1] كان لها تأثيرها الفعّال ودورها الكبير في توجيه اللّغويات التّاريخيّة ورسم معالمها المنهجيّة عصرئذ.

فاللّغويات التّاريخية تطوّرت في ظلّ تأثرها بنظريّة النّشوء والارتقاء الدّاروينية، فكتاب ((الخلاصة)) لأوجست شليشرAugust Schleicher الحاوي بين دفتيه نظرية شجرة الفصائل أو الأسر اللّغويّة لم يظهر إلا بعد سنتين من ظهور كتاب داروين ((أصل الأنواع))، سنة 1859م في إنجلترا،(2) ثم أردفه ببحث نشره سنة 1863 تحت عنوان: علم اللّغة ونظرية داروين، دعا فيه بحماسة إلى وجوب معاملة علم اللّغة معاملة العلوم الطّبيعية مع تطبيق نظرية داروين عليه.

وهكذا يتبيّن أن اللّغويات التّاريخية مدينة لنظرية داروين، فـ " اللّغات والعائلات اللّغويّة تشبه الأجناس الحيوانية، تتنافس فيما بينها (تتصارع من أجل البقاء) ".[3] وقد ألقت هذه اللّغويّات بظلالها على اللّغويّات العربيّة التّاريخيّة، ما يعني أنّها هي الأخرى تأثرت بنظريّة داروين.

(1) – ينظر: المدارس اللّغوية ((التّطور و الصّراع))، جيفري سامبسون، تر: أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ص: 15 – 16.

(2) – ينظر: المدارس اللّغوية ((التّطور و الصّراع))، جيفري سامبسون ، ص: 18 – 19.

(3) – ينظر: المصدر السّابق، ص: 15.

2/3 – **فلسفة إميل دوركيم** Emile Durkheim[1] **الاجتماعية**:

كان إميل دوركيم يميل بعض الشّيء إلى الفلسفة الوضعيّة، ما يعني معارضته للنّزعة الفرديّة، متأثرا في ذلك بكارل ماركس Carl Marx[2]، علاوة على أنه كان من أولئك الذين نادوا بأنّ الظّواهر الاجتماعيّة ينبغي أن تعامل على أنّها ظواهر من صنف خاص. ومن أشهر مؤلّفاته كتابه: تقسيم العمل الاجتماعي La division de travail social.

كان دوركيم Durkheim ينظر إلى اللّغة Langue على أنّها مستقلة عن كلّ من الكلام Parole واللّسان Language.

ومن هنا يظهر تأثير دوركيم في لغويات دي سوسير De saussure، إذ انطلق هذا الأخير من الفروق الثّلاثيّة التي قال بها دوركيم (اللّغة والكلام واللّسان)؛ لتأسيس نظريته في اللّسانيات الوصفيّة، كما كان يعتبر اللّغة مؤسّسة اجتماعيّة تختلف عن المؤسّسات الاجتماعيّة الأخرى لكونها رموز غير معلّلة. خصوصًا إذا علمنا أن دي سوسير كان صديقا له.[3]

3/3 ـ **الفلسفة التّجريبيّة والوضعيّة**:

على الرّغم من أسبقية التّجريبيّة على الوضعيّة زمنيًا، وعلى الرّغم من الفروق الفلسفيّة بين هذين المذهبين الفلسفيّين، فإنّ مفهوم العلميّة يكاد يتّفق عند كلّ منهما.

(1). عالم اجتماعيّ فرنسيّ، ولد عام 1858م في إيبينال، ودرس في كليّة نورمال سوبريور في باريس، ثمّ عمل محاضرًا لعلم الاجتاع في جامعة بوردو وفي السّربون. وكانت له نظريّات وكتابات أسهم بها في إرساء أسس علم الاجتماع الحديث، ومن مؤلّفاته: ((قواعد المنهج الاجتماعيّ))، و((الانتحار)). توفي عام 1917م. ينظر: الموسوعة العربيّة العالميّة، مؤّسسة أعمال الموسوعة للنّشر والتّوزيع، ج: 10، ص: 460.

(2). فيلسوفٌ ألماني، ولد عام 1818 م في إقليم تريز التّابع لما كان يُعرف باسمبروسيا ونشأ فيه. التحق بالجامعة في عام 1835م، لدراسة القانون، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة منجامعة جينا عام 1841م.ويُطلق على نظرية ماركس أحيانًا اسمالماديّة الجدلية، كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريَّتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطيةوالشيوعية الثورية. توفي عام 1883م. ينظر: الموسوعة العربيّة العالميّة، ج: 22، ص: 63.

(3) – ينظر: علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربيّ))، محمود السّعران، ص: 342 – 344.

فالتّجريبيّة ترى أن كلّ ما ليس خاضعا للتّجربة والإدراك الحسيّ يقع خارج إطار العلميّة، بينما لا تقرّ الوضعيّة بعلميّة كلّ ما ليس له وجود ماديّ أو فيزيائيّ اعتمادًا على مبدأي التّحقق والتّخفيض.[1]

وقد كان لهاتين المدرستين الفلسفيتين تأثير لا يستهان به في المدرسة الوصفيّة الأمريكيّة ((البنيويّة الأمريكيّة)) التي قادها ليونارد بلومفيلدBloomfieldLeonard[2] متأثرا بواطسنWatson . مؤسّس المدرسة السّلوكية في علم النّفس . إذ تبنت مفهوم هاتين المدرستين للعلمية والموضوعية، " فَعُرِفوا بصرامتهم في الدّعوة إلى المحافظة على الموضوعيّة، و انتقاد العقلانيّين في الاعتماد على الحدس، والاستبطان في الحكم على المادّة اللّغويّة "؛[3] مع رفض إقحام كلّ موضوع يخرج عن نطاق الملاحظة أو تتعدى حدود الوصف.

على أنّ التّجريبيّة والوضعيّة اللّتين تبناهما بلومفيلد وأتباعه أخذتا تنتكسان بعودة النّزعة العقلانيّة إلى الدّراسات اللّغويّة من جديد.[4]

(1) . ينظر: مدخل إلى اللّسانيّات، محمّدمحمّد يونس عليّ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص: 46؛ وفي الفلسفة العامّة ((دراسة ونقد))، محمّد عبد الله الشّرقاويّ، دار الجيل، بيروت . لبنان، ط: 2، 1411 هـ . 1991م، ص: 40؛ والمعجم الفلسفيّ، جميل صليبا، دار الكتاب اللّبنانيّ، 1982م، ج: 2، ص: 578؛ والموسوعة الفلسفيّة المختصرة، تر: فؤاد كامل وآخرون، دار القلم، بيروت . لبنان، ص: 150 و538.

(2) . هو زعيم المدرسة البنيويّة الأمريكيّة، ولد في شيكاغو عام 1887م ، وتلقى دراسته الجامعية في جامعة هارفارد، وحصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو. درَّس علم اللغات في جامعة شيكاغو وجامعةييل. وساعد على تأسيس جمعية علم اللّغات الأمريكيّة في سنة 1924م وأصبح فيما بعدرئيسًا لها ويعدّ كتابه ((مدخل إلى اللّغة)) المنهل المعين للبنيويّة الأمريكيّة. تأثر منذ التقائه بويس عام 1921م بالنّظريّة السّلوكيّة في علم النّفس. وتوفي عام 1949م. ينظر: الموسوعة العربيّة العالميّة، مؤسّسة أعمال الموسوعة للنّشر والتّوزيع، ج: 5، ص: 111؛ والألسنيّة ((علم اللّغة الحديث: المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، ص: 231.

(3) – مدخل إلى اللّسانيات، محمد محمد يونس علي، ص: 44.

(4)– ينظر: المصدر السّابق، ص: 43 – 46.

4/3 ـ النّزعة العقلانيّة:

تتميز مدرسة تشومسكي التّحويليّة التّوليديّة من المدرسة الوصفيّة التّقريريّة في أنّها تبنّت الفلسفة العقليّة إطارًا فلسفيًا لأفكارها، فأَوْلت عناية فائقة لكلّ من الحدس والاستبطان والتّقدير؛ لاعتبارها هذه العناصرَ وسائل ناجعة لاستكشاف مبدأ قدرة الإنسان على تكوين عدد غير متناهٍ من الجمل ذات البنيات العميقة،[1] بل اعتبرت استبعاد هذه العناصر عن الدّرس اللّغويّ موضوعًا لا يقبل الجدل؛ لأنّ ذلك يحصر الدّرس اللّغويّ في شكليات اللّغة المدروسة.[2]

وأخيرًا، يتبيّن أن المدارس الألسنيّة على تنوّع اتّجاهاتها، لا يرسم معالمَها خلافُ الألسنيّين في القضايا اللّغويّة فحسب، بل تحكمها بالدّرجة الأولى أصول فلسفيّة ذات طبيعة أنطولوجية إبستمولوجية، لعل أهمّها اختيار الألسنيّ " حدود نطاق علميّة الألسنيّة، ونظرته إلى طبيعة العلم، وتحديده لنوع المادة اللّغويّة، والوسائل، والطّرائق التي تجمع بها المادّة وتحديده القدر الكافي في دراسة الظّاهرة اللّغويّة: أ ينبغي أن يقف عند الوصف، أم يتعدّاه ليغوص في أعماق التّفسير؟ وإلى أيّ مدى يحقّ له أن يتّسع في تجريده لتوصيفاته وتفسيراته؟ وما المحظورات التي ينبغي أن يتجنّبها في عمليّة التّجريد".[3]

4 ـ ما يعترضه من معوّقات:

لم يولِ الباحثون الاهتمام بما تستحقه المعوّقات التي تعترض سبيل التّفكير اللّغويّ الحديث وتحول دون نهضته في الوطن العربي من البحث والاستقصاء، على الرّغم من حساسية الموضوع وأهميته.

وممّا عثرنا عليه من الأعمال العلميّة ويمكننا التّعويل عليه والاستئناس به في معالجة هذه القضية، هو البحث الذي شارك به عبد السّلام المسدّي في أشغال ندوة اللّسانيات واللّغة

(1) – ينظر: مدخل إلى اللّسانيات، محمد محمد يونس علي، ص: 45.

(2). ينظر: المرجع السّابق، ص: 44 نقلا عن: N. chomsky, aspects of the theory of syntax, cambridge: the mmrs (1965) p. 193, note 1

(3) – مدخل إلى اللّسانيات، محمد محمد يونس علي، ص: 104.

العربيّة بعنوان ((الفكر العربيّ والألسنيّة))، وإن كان المسدّي نفسه يرى أن بحثه هذا لا يعدو أن يكون ضربًا من الخواطر، وأنّه " تحسس تقريبيّ قد يصدق في موطن ولا يصدق في آخر، وقد ينطبق بعضه على بعض رقعات الوطن العربيّ دون أخرى ".[1]

ومع هذه المقدّمة المتحفظة التي شاء المسدّي أن يمهّد بها هذا البحث، فإنّنانقرّ بأنّه وُفق غاية التّوفيق في تناول هذا الموضوع، إذ استطاع أن يُشخّص للباحثين والعلماء أبرز هذه المعوّقات تشخيصا دقيقا، فحصرها في خمسة معوّقات رئيسة، وزدنا عليها معوّقًا سادسًا، وهي:

1/4 ـ القول باكتمال علوم اللّغة العربيّة:

نشأ في نفوس بعض العرب سياج من المحظورات تجاه تراثهم اللّغويّ، فَتَرَسَخَتْ بموجبه عقدة الاستغناء؛ لشعور هؤلاء العرب وغيرهم من المشتغلين بهذا التّراث الزّاخر، بحثا وتدريسا، باكتمال علوم اللّغة العربيّة. وهذا الشّعور المخالط بشيء من الاعتقاد تدعمه جملة من معطيات تاريخية وأخرى ثقافية. أهمها:

أ- ضخامة التّراث اللّغويّ العربيّ الذي قلّما تجد له مثيلا في الأمم الأخرى.

ب- غياب الاطّلاع الكافي على حقائق اللّسانيات المعاصرة، التي تدرس اللّغة من حيث هي ظاهرة إنسانية، لا كما تناولتها الدّراسات اللّغويّة القديمة بوصفها نموذجًا معيَّنًا كالعربيّة والفارسيّة.[2]

2/4ـ حصر اللّسانيّات في الصّوتيات:

ظلّ تصوّر كثير من اللّغويّين المحدثين في الجامعات العربيّة للسانيّات محصورا في علم الأصوات، ما انعكس سلبًا على مسير التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث. هذا، إذا علمنا أنّ علم الأصوات . مع سبقه إلى العلميّة الصّارمة . " يقصر عن أن يكون المفتاح الرّئيسيّ لإدراك

(1) – الفكر العربي والألسنية، عبد السّلام المسدّي، أشغال ندوة اللّسانيات واللّغة العربيّة، تونس 13 . 19 ديسمبر 1978م، سلسة اللّسانيّات 4، الجامعة التّونسيّة، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، ص: 12.

(2) – ينظر: الفكر العربي والألسنية، عبد السّلام المسدّي، ص: 12.

نواميس الحدث الألسنيّ وبلوغ محرّكات الظّاهرة اللّغويّة في نسيجها المتفاعل ".[1] كما " صادف أن كان جانب الأصوات من أدّق ما ضبطه العرب في علومهم "[2] اللّغويّة، وبخاصة الفرع التّشريحيّ منه، فتأكّد لدى من يشعرون باكتمال علوم اللّغة العربيّة شعورهم الذي يكاد يرتقي إلى درجة الاعتقاد عند بعضهم.[3]

3/4 ـ الصّراع المستمر بين الوصفيّة والمعياريّة:

ويعدّ الصراع بين اللّغويين الوصفيّين واللّغويين المعياريّين، من أخطر ما يعوق ازدهار اللّسانيات في الوطن العربيّ. فالمنهج اللّسانيّ القائم على الوصف " ينبذ كلّ موقف معياريّ من اللّغة، فهي تمسك عن إصدار الأحكام وعن التّقييم، سواء ما كان منه تنويهًا أم تهجينًا؛ لأنّها لا تستند إلى تصنيفات الخطأ والصّواب، ولا إلى مقولة الحسن والقبح "،[4] في حين أنّ علوم اللّغة العربيّة التّقليديّة معياريّة تصدر الأحكام، على الرّغم من تقصيها مبادئ الوصف ومنطلقاته أيام نشأتها الأولى.

ومع هذا، فإنّه لا يعني أنّ الوصفيّة والمعياريّة نقيضان مطلق التّناقض. وهذا ما غاب عن كثير من علماء النّحو المعياريّ، وعمل على ترسيخ هذا الغياب المعرفيّ وعلى تفاقمه ثلّة من اللسانيّين، فاعتُبر اللسانيّ حينًا أو اعتقد هو نفسه حينًا آخر أنّه " من حيث يلتزم الوصفيّة تحتم عليه الطّعن في المعياريّة ".[5] ولكنّ المتأمّل في الأمر بتأنٍ، يدرك أنّ الوصفيّة والمعياريّة مصطلحان ينتميان إلى " صعيد فلسفة المعارف لنفس النّسق المبدئيّ ولا لنفس الحيّز التّصوريّ، فَلَيْسا من شريحة واحدة حتّى يتسنى مقارعة إحداهما بالأخرى ".[6]

---

(1) – المصدر السابق ، ص: 13.

(2) – المصدر السابق والصّفحة نفسها.

(3) – المصدر السابق والصّفحة نفسها.

(4) – الفكر العربي والألسنية، عبد السّلام المسدّي، ص: 13.

(5) – المصدر السّابق، ص: 14.

(6) – المصدر السابق والصفحة نفسها.

هذا، إذا علمنا أنّ اللّسانيّات " لا تنفي علم النّحو ولا تنقصه، بل إنّ وجودها متوقف قطعا على وجوده، إذ لا معنى للبحث اللّساني ما لم نستنبط نظام اللّغة عن طريق استخراج مؤسّساتها النحوية، فنسبة ما بين النّحو واللّسانيّات كنسبة ما بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع في شجرة الفلسفة، النّحو قائم على ما يجب أن يكون واللسانيات قائمة على ما هو كائن "،[1] وهكذا يتضح أنّ اللّسانيات ليست إلا إفرازا للنّحو وتجاوزا له في الوقت نفسه.[2]

4/4ـ تسويةاللّسانيات بين العربيّة الفصحى واللّهجات المحليّة:[3]

كان لحركة الاستشراق السّبق في تناول اللّهجات العربيّة بالدّراسة العلميّة من حيث المنهج، فانقاد وراءهم عدد غير قليل من أبناء العربيّة. وعلى الرّغم من القيمة العلميّة للبحوث المتعلّقة باللّهجات، إضافة إلى أمانة بعض المستشرقين الذين نهضوا بهذا العلم وروّجوه، فإن بعضهم الآخر قد عملوا على ترويج علم اللّهجات في الوطن العربيّ بباعث، سواء أكان هذا الباعث سياسيًا أم دينيا أم قوميا؛ فوقع في مصيدتهم بعض أبناء العربيّة في وقت من الأوقات، حين دعوا إلى استبدال اللّهجات بالفصحى،[4] وهي بطبيعة الحال دعوة خاطئة من النّاحيّة الإستراتيجية.[5]

وقد نتج عن هذا المعطى التّاريخي أن حفّ باللّسانيات كثير من الرّيب والشّك في حقيقة أمرها، حينما عكفت هي بدورها على دراسة اللّهجات، معتبرة إيّاها مبدأً من مبادئها؛ فاحترز

(1) – اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السّلام المسدّي، الدّار التّونسيّة للنّشر والمؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1986م، ص: 42.

(2) – ينظر: المصدر السابق والصفحة نفسها.

(3) .ينظر: نحو عربيّة ميّسرة، أنيس فريحة، ص: 91. 133. والعربيّة ولهجاتها، عبد الرّحمن أيّوب، مطابع سجل العرب، 1968م، د.ط، ص: 1.4 و34 و70. 74 و82. 84 و99. 109.

(4) – ينظر: الفكر العربيّ والألسنية، عبد السّلام المسدّي، ص: 15.

(5) .ينظر: نحو أطلس لسانيّ عربيّ ((المساهمة التّونسيّة))، الطّيب البكوش و صالح الماجري، بحث ضمن كتاب تذكاريّ بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويًّا، ص:214 .

منها بعض المشتغلين بالعلوم اللّغويّة احترازا حال من دون ازدهارها في الأوساط العلميّة والأدبيّة والثّقافيّة حتى الرّسميّة.[1]

5/4ـ لغة البحث اللسانيّ:

إنّ المشكلة اللّغويّة التي تعاني منها الكتابات اللّسانيّة في الوطن العربيّ تتمثل في لجوء بعض اللّسانيّين العرب إلى صياغة بحوثهم باللّغات الأجنبيّة، ما جعل عبد السّلام المسدّي يسلبهم كل مبرّر وارد ومحتمل، بحيث لم يبق لهم منه شيئًا. ولعلّ الأدهى من ذلك، هو أن بعض من كتب بالعربيّة من اللسانيّين العرب، عدلوا عن الوضوح وآثروا عليه التّعمية والغموض، سواء عن قصد أم غير قصد. وهذا واقع لا مهرب من الإقرار به. وليس الأمر ـ في رأينا ـ كما يقول المسدّي موجّها التّهمة إلى قراء العربيّة فقط، بأنّ أمر كلّ واحد منهم في معظم الأحيان لا يخلو من إحدى الحالتين: " إما أنّه لا يتيسر له إدراك مادّة النّص فينتقم على النّص وعلى صاحبه ثم على الألسنيّة وأفنانها، فيرمي الكلّ بالألغاز والتّعمية. وإمّا أنّه يفهم و لكن يعجز عن تمييز ما هو حاصل مكتسب في الألسنيّة وما هو من وضع صاحب البحث العربيّ واستحداثه فتتميّع الثّمرة التي ينشدها الألسنيّ العربيّ المجتهد في مجال علمه ".[2] ونلفى ما ندعم به رأينا فيما ذهب إليه الرّاجحي من أنّ التّوليديّين العرب عجزوا عن تقديم نموذج مؤثر في الدّرس اللّغويّ العربيّ إلى حدّ الآن لأسباب تعبيريّة في لغتهم.[3]

(1) – ينظر: الفكر العربي والألسنية، عبد السّلام المسدّي، ص: 16 و نحو أطلس لسانيّ عربيّ ((المساهمة التّونسيّة))، الطّيب البكوش و صالح الماجري، ص: 214.

(2) – الفكر العربي والألسنية، عبد السّلام المسدّي، ص: 17.

(3) . ينظر: النّظريّات اللّغويّة المعاصرة وموقفها من العربيّة، عبده الرّاجحي، بحث ضمن كتاب تذكاريّ بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويًّا، إشراف عبد الرّحمن حسن العارف، عالم الكتب، ط: 1، 1423 هـ. 2002م، ص: 247.

6/4 ـ تعدد المصطلحات:

وبما أن مصطلحات علم اللّغة تعاني من مشكلة التّوحيد. كما يقول أحمد مختار عمر،[1]. فقد تعدّدت التّرجمة العربيّة للمصطلحات اللّغويّة الحديثة، إلى أن بلغت حدّ التشتت، حيث يطلق مصطلح واحد على أكثر من مفهوم لغير ضرورة، ويُعبّر عن المفهوم الواحد بأكثر من مصطلح لغير حاجة؛ و"هذه الحال من الفوضى تعكس فوضى فكريّة ومنهجيّة حتمًا أو تنذر بها على أحسن الفروض".[2]

ومن ذلك على سبيل المثال، تعدد المقابل العربيّ للفظ الأجنبيّ linguistique،[3] وممّا يقابله في العربيّة: علم اللّغة الحديث واللّغويات الحديثة واللّسانيات والألسنيّة،[4] وذلك عائدٌ إلى اختلافهم في ترجمة ثنائية دي سوسير الشّهيرة: اللّغة والكلام؛ فقد وردت أوّل إشارة إليهما في كتاب ((علم اللغة)) لعليّ عبد الواحد وافي عام 1940م، ترجمةً لـ langue و parole على التّوالي، وظلّ معظم الباحثين من بعده يتناقلون هذين المصطلحين حتّى اليوم. لكنّ بعض المترجمين أو المؤلّفين راحوا مؤخّرًا يزعزعون هذا الاستقرار الاصطلاحيّ؛ فاستبدلوا بالمصطلح الأوّل ((اللّغة)) مصطلحًا آخر هو ((اللّسان))، ومن ثَمَّ جعلوا اللّسانية واللّسانيات والألسنيّة علمًا للعلم الذي يدرسه. ويلاحظ أن هناك خلافًا قائمًا حتّى فيما بينهم في تسمية العلم الذي يدرس اللّسان، وهو أمر مؤسف للغاية؛ ومن هؤلاء الباحثين من يترجم ((parole)) بـ ((الحديث)) بدلاً من ((الكلام))؛ وهذه المحاولات على كثرتها فرديّة كانت أم مجمعيّة. كما يقول محمّد حسن عبد العزيز. " تضرب بكلّ الأسس العلميّة

(1). ينظر: محاضرات في علم اللغة الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة. مصر، ط: 1، 1995م، ص: 23.

(2). المصطلحات اللّغويّة، محمّد حسن عبد العزيز، بحث ضمن كتاب تذكاري بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويًّا، ص: 289.

(3). ينظر: قاموس اللّسانيات: عربي فرنسي. فرنسي. عربي، عبد السّلام المسدي، ليبيا، 1992م. و مشكلات لغويّة في حياتنا المعاصرة، د. شرف الدّين عليّ الرّاجحي، المكتبة المصريّة، 2002م، 73.

(4). ينظر: أزمة اللّسانيّات واللّسانيّين في الوطن العربيّ، مازن الوعر، مجلّة المعرفة، كانون الثّانيّ ((يناير)) 1983م، ص: 82. وتجدر الإشارة إلى أنّه قد ساد كلّ مصطلح من هذه المصطلحات منطقة عربية دون أخرى، حيث شاع استعمال مصطلح علم اللغة في معظم بلدان المشرق العربي، والألسنية في لبنان واللسانيات في المغرب العربي.

المستقرة عرض الحائط، وتحول دون الفهم الواضح القائم عليه، إنّها في الغالب نزعات فرديّة أو إقليميّة أو مدرسيّة، وهي النّزعات التي تسود العمل العربيّ الجمعيّ ".[1]

وإذا كان اللّسان في رأي من يجعلونه مقابلاً لـ langue هو " اللّغة المعيّنة الصّالحة للدّراسة مثل العربيّة والإنجليزيّة وغيرهما "،[2] ما يعني أنّه متصور نمطي يمثل نظامًا معيّنًا للغة واحدة،[3] فإنّنانذهب إلى الاعتراض على ترجمة Linguistique بإحدى مشتقّات ((اللّسان))؛ لأنّه لا يدرس لغةً معيّنة، وإنّما يُعنى بدراسة اللّغة بمعناها المطلق، في حين يطلق ((اللّسان)) على أنظمة لغة معيّنة، ويتعيّن بعد ذلك ترجمته بـ((علم اللّغة))، وقد سبق أن أصدر مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة قرارًا يقضي باستعماله، ورجّحه كذلك بعض الباحثين؛ قياسًا على ما تسمّى به بعض العلوم الحديثة كعلم النّفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم النّبات... الخ.[4] وفي الوقت نفسه يخلط بعض الباحثين بين مصطلحي ((فقه اللّغة philologie)) و((علم اللّغة linguistique)) على الرّغم من الفارق الكبير بينهما.[5]

ومع هذا الاعتراض الصادر منّا على اقتناع؛ فإنّنا سنتخلّى عن هذا الاقتناع في قادم صفحات هذا البحث، ونلزم أنفسنا استعمال اللّسانيات. باستثناء المنقول حرفيًا.

عملا بتوصية ندوة اللّسانيات، علّنانسهم بهذا التّنازل المتواضع في وضع حدّ من اتّساع الهوة بين المصطلحات.

وقدّمنا توصية النّدوة على قرار المجمع؛ لأنّ المشاركين فيها كانوا من أهل الاختصاص العميق.

---

(1) .المصطلحات اللّغويّة، محمّد حسن عبد العزيز، ص: 293.

(2) .في علم اللّغة العام، شرف الدّين عليّ الرّاجحي، دار المعرفة الجامعيّة، 2005 م، ص: 13.

(3) .ينظر: اللّسانيات وتعليم اللّغة، محمود أحمد السّيد، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة. تونس، ص: 9.

(4) . ينظر: علوم اللّغة الحديثة ((ماذا تعرف عنها؟))، محمود إسماعيل صيني، مجلّة الفيصل، 1978م، ع: 18، ص: 68. وعلام اللّسانيّات، أنطوان مقدسيّ، الموقف الأدبيّ، ع: 135، آب ((أغسطس)) 1982م، ص: 29.

(5) . ينظر: نصوص في فقه اللّغة العربيّة، السّيد يعقوب بكر، دار النّهضة العربيّة، 1970م، ج: 1، ص: 11؛ ودراسات في فقه اللّغة، صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ص: 19. 21.

وعلاوةً على هذا التّشتت، فإنّ إيجاد مقابل عربيّ للمصطلح اللّسانيّ يأتي في كثير من الأحيان متأخرًا نتيجةً للتّطوّرات الهائلة التي تشهدها اللّسانيّات الغربيّة، يقول مازن الوعر: " وهذا بالطّبع سيجعلنا دائمًا في المؤخرة، ذلك لأنّنا نحن العرب ما زلنا نبحث الآن عن إيجاد المصطلح اللّسانيّ المقابل الذي يمثّل فترة التّطوّر اللّسانيّ الغربيّ في الخمسينيات والسّتينيات من هذا العصر، مع العلم بأنّ مئات المصطلحات اللّسانيّة قد تولّدت في السّبعينات والثّمانينات من هذا العصر؛ نتيجة التّقدّم الذي أحرزته العلوم اللّسانيّة في الغرب ولاسيّما في الولايات المتّحدة ".[1]

ومن المناسب الإشارة إلى أنّ البحث اللّغويّ العربيّ القديم لم يسلم تارة من إشكاليّة المصطلحات،[2]ومن ذلك مثلاً مصطلح ((المفرد)) في النّحو، حيث يستعمل هذا المصطلح في باب من الأبواب للإشارة إلى الواحد، أي ما يقابل المثنى والجمع، ويعبّر به في باب آخر عمّا ليس جملة أو شبه جملة، ويشار به في باب آخر إلى ما ليس مضافًا ولا شبيهًا بالمضاف. ومن ذلك أيضًا مصطلح ((الحرف)) الذي يستخدم حينًا للدّلالة على قسم من أقسام الكلم، وحينًا آخر للتّعبير به عن وحدة من وحدات النّظام الصّوتي أو الإملائي في العربيّة، مثل الهمزة والباء والتاء وغيرها ممّا يعرف بحروف الهجاء.[3]

هذه جملة من المعوّقات التي تعترض سبيل البحث اللّسانيّ وتحول دون ازدهاره في الوطن العربيّ، ويتقاسم مسؤوليتّها كلٌّ من اللسانيّين العرب وعلماء النّحو والصّرف والقرّاء، وليست هذه المعوّقات تنحصر في افتقار الكتّاب إلى القرّاء المثاليين كما يرى المسدّي.[4]

---

(1). أزمة اللّسانيّات واللّسانيّين في الوطن العربيّ، مازن الوعر، 80.

(2) . ينظر: المصطلحات النّحويّة في التّراث النّحويّ في ضوء علم الاصطلاح الحديث، إيناس كمال الحديدي، دار الوفاء، الإسكندريّة. مصر، ط: 1، 2006م، ص: 143. 147.

(3) . ينظر: شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، الإمام ابن هشام الأنصاريّ، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا. بيروت، 1409 هـ. 1988م، ص: 14، 16؛ و82. 83؛ وحاشيّة الخضري على شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، الشّيخ محمّد الخضري، دار الفكر، بيروت. لبنان، 1397 هـ. 1978م، ص: 64.

(4) – ينظر: الفكر العربيّ والألسنيّة، عبد السّلام المسدّي، ص: 17.

المبحث الثّانيّ:

المنهج الوصفيّ في إطاره النّظريّ ودور الرّواد الوصفيّين العرب في تنظيره

1ـ مفهوم الوصفيّة وأسسها اللّغويّة

2 ـ المنعطفات التّاريخيّة الكبرى للمنهج الوصفيّ

3 ـ الفرق بين المنهج الوصفيّ والمناهج اللّغويّة الأخرى

4 ـ المنهج الوصفيّ، تقييما وتقويما

5 ـ ملامح وصفيّة في التّراث اللّغويّ العربيّ

6 ـ الدّور التّنظيري للرّواد الوصفيّين العرب.

1/مفهوم الوصفيّة وأسسها اللّغويّة

1 / 1 ـ مفهوم الوصفيّة:

إنّ التّحول المنهجيّ الّذي شهدته الدّراسات اللّغويّة الغربيّة في أواخر القرن الثّامن عشر وأوائل القرن التّاسع عشر؛ نتيجة اكتشاف اللّغة السّنسكريتية،[1] وترجمة الدّراسات اللّغويّة الهنديّة إلى اللّغات الأوروبيّة، لا يزال في امتداد مذهل وتفاعل متواصل، بدءً بظهور المنهج المقارن، ومرورًا بالمنهج التّاريخيّ وانتهاء بالمنهج الوصفيّ، [2] بقسميه التّصنيفيّ والتّفسيريّ.[3]

وبما أنّ هذا البحث يتناول أفكار المنهج الوصفيّ وإجراءاته العمليّة في الدّرس اللّغويّ العربيّ الحديث، فإنّه يستوجب علينا أننمّهد لهذه الأفكار بتعريف لغويّ واصطلاحي للفظ ((المنهج))، ثم نردفها بالتّعريف الاصطلاحيّ للمصطلح ((المنهج الوصفيّ)).

فالمنهج لغةً كالنهْج والمنهاج، وهو الطّريق البيّن الواضح[4]، وفي التّنزيل : " لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً "؛[5] واصطلاحا هو: " طريقة في تنظيم المعلومات تعتمد على أساس منطقيّ أو تاريخيّ أو اصطلاحيّ خاضع لمفاهيم مقنعة أو متعارف عليها من أجل الوصول إلى الحقيقة أو البرهنة عليها".[6]

---

(1) – لغة الهنود القدماء، واكتشف السير وليام جونز العلاقة بينها وبين اللغات الأوروبية عام 1786م. ينظر: في علم اللّغة العام، شرف الدّين عليّ الرّاجحي، ص: 67.

(2) – ينظر: في مناهج البحث اللغوي، أحمد طه حسانين سلطان، مطبعة الأمانة، مصر، ط: 1، 1411هـ – 1991م، ص: 41.

(3) – ينظر: اللّغة والحداثة، تمام حسان، مجلة الفصول، مج: 4، ع: 3، 1984، ص: 128.

(4)– ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج: 14، ص: 300.

(5) – سورة المائدة، آية 48.

(6) – ورقات في البحث والكتابة، عبد الحميد الهرامة، منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة، دار الكتب الوطنيّة، بنغازي – ليبيا، ط: 3، 1370 و.ر– 2002م، ص: 30.

أمّا التّركيب الاصطلاحيّ ((المنهج الوصفيّ)) عند اللسانيّين، فهو المنهج الّذي يتناول " بالدّراسة العلميّة لغةً واحدة أو لهجةً واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه "؛[1] للوصول " إلى القواعد أو القوانين العامّة التي تحكمها "؛[2] أو للتّوصل " على الأقلّ إلى معرفة البنية أو التّركيب الهيكليّ لها ".[3] وعلم اللّغة الوصفيّ حسب معطيات هذا التّعريف، علم ساكن يلزم الباحث فيه تحديد الفترة الزّمنيّة. ماضيا كان أو حاضرا،[4]. والمستوى اللّغويّ على تنوّع مستوياته التّحليليّة،[5] بحيث لا يتجاوزهما.[6]

وكما سبقت الإشارة إليه، فإنّ المنهج الوصفيّ إمّا وصفيّ تصنيفيّ ((تقريريّ)) وإمّا وصفيّ تفسيريّ، وقد تأسّست على المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ النّظريات اللّغويّة التي ظهرت في الغرب قبل ظهور التّيار التّوليديّ الذي يقوم على المنهج الوصفيّ التّفسيريّ. فالباحث في أوّلهما يقف " عند حدود الوصف والتّحليل والتّصنيف، ولا يتدخل بتفسير ظاهرة أو تعليل لاتّجاه لغويّ هنا و هناك "[7]، إذ التّفسير والتّعليل يعتبران في وجهة نظر هذا الاتّجاه من خصوصيات الفلسفة،[8] بينما الباحث في ثانيهما يتخطى " مجرّد الوصف إلى تفسير الظّواهر اللّغويّة وشرحها بذكر عللها وأسبابها ".[9]

---

(1) – علم اللّغة العربيّة ((مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة))، محمود فهمي حجازي، دار نهضة الشّرق، جامعة القاهرة، 1997، ص:37.

(2) – منهج البحث اللّغويّ بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، علي زوين، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد. العراق، ط: 1، 1986، ص: 10.

(3) – المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

(4) – أسس علم اللّغة، ماريو باي، تر وتع: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة. مصر، ط:2، 1403 هـ – 1983م، ص: 137.

(5)– الفرق بين المستوى اللّغوي ومستويات التّحليل اللّغويّ هو أنّ الأوّل منهما مرتبط بمستوى الاستخدام المتمثّل في الطبقات الاجتماعيّة، مثل طبقة الأطباء وطبقة المحامين، وثانيتهما مرتبط بالأنظمة اللّغويّة المتمثّلة في الأصوات والكلمات والتّراكيب والدّلالات. ينظر: علم اللّغة، عبد الله عبد الحميد سويد وعبد الله علي مصطفى، دار المدينة القيمة للكتاب، طرابلس – ليبيا، ط: 1، 1993م، ص: 82.

(6) – ينظر: علم اللّغة العربيّة ((مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة))، محمود فهمي حجازي، ص: 37.

(7) – مناهج البحث اللّغوي، أحمد طه حسانين سلطان، ص: 42.

(8) – المصدر السّابق، ص: 42.

(9)– المصدر نفسه، ص: 43.

1 / 2 ـ الأسس اللّغويّة للمنهج الوصفيّ:

للمنهج الوصفيّ وبخاصّة التّصنيفيّ منه أسس عامّة تتمثّل فيما يأتي:

أ ـ تحديد المستوى اللّغويّ:

يعني اللّغويّون المحدثون بالمستويات اللّغويّة " مجموعة من الخصائص اللّغويّة، تستخدم في بيئة معيّنة، بحيث تميّزها عن المجموعات الأخرى من الخصائص اللّغويّة التي تستخدم في بيئات أخرى، بشرط أن يتمّ ذلك داخل لغة واحدة "؛[1] كاللّغات الخاصّة التي لا يستعملها إلا جماعات من الأفراد تجمعهم ظروف خاصّة؛ ومنها على سبيل المثال لغة العصابات والتّنظيمات السّريّة، ولغة الأطّباء أو القضاة أو الصّناع، وكاللّهجات واللّغات المشتركة والرّسميّة.[2]

وعلى الباحث اللّغويّ الوصفيّ أن يحدّد المستوى اللّغوي الّذي يستقي منه مادّة دراسته، منطوقة كانت أو مكتوبة، إذ الخلط بين المستويات المتباينة في الوصف، كعدم التّفريق بين اللّغة العلميّة والأدبيّة، وبين اللّغة الشّعرية والنّثريّة من الأسلوب الأدبيّ نفسه، وبين لهجة وأخرى يقود إلي نتائج مضطربة،[3] تسرى إليها الفوضى وتتعدّد الوجوه في الموضع الواحد.[4]

بـ تحديد البيئة المكانيّة:

لتنوّع البيئات واختلاف الأوساط التي تحيط بالإنسان أثر عميق في رسم خصائصه اللّغويّة، وهذا هو مكمن فائدة تحديد البيئة أو الوسط الذي يعدّ بحقٍّ المنبع المعين للمادّة اللّغويّة، فالخصائص اللّغويّة للبيئة الصّحراويّة تختلف عن الخصائص اللّغويّة للبيئة غير

(1) – علم اللّغة، عبد الله عبد الحميد سويد وعبد الله علي مصطفى، ص: 76.

(2) – المصدر السّابق، ص: 76– 82.

(3) – ينظر: في مناهج البحث اللّغويّ، أحمد طه حسانين سلطان، ص: 49 – 50. واللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثّقافة، الدّار البيضاء. المغرب، ص: 13– 14.

(4) – ينظر: في مناهج البحث اللّغويّ، أحمد طه حسانين سلطان، ص:52– 53 نقلا عن: بحث منهجي في أصول اللّغة، عبد اللّطيف، ط: 1، 1992م، ص: 25.

الصّحروايّة، كما أن اللّغة المستعملة في الأوساط المهنيّة والحرفيّة على تعدّدها، تختلف من مهنة لأخرى ومن حرفة لأخرى؛ لأنّ في كلّ بيئة لغويّة. كما يقول محمود السّعران. " ظروفًا تدفع إلى تطوّر الكلام وتغيّره في كثير من الظّواهر، وظروفًا أخرى تعمل على استقرار هذه الظّواهر وتحصينها، فلا يطرأ عليها تغيّر أو تحوّر؛ غير أنّ الغلبة دائمًا تكون لعوامل التطوّر ".[1] ومن هنا كان تحديد البيئة المكانيّة لزامًا على الباحث الوصفيّ، بحيث لا يمكنه التّغاضي عنها إذا ما أراد الوصول إلى قواعد في غاية الانسجام، لا يعرف الاضطراب والتناقض طريقا إليها.[2]

ج _ تحديد الفترة الزمنية:

وإقرارًا بأنّ اللّغة تنمو وتتطوّر ككائن حيّ، ومراعاةً لهذا التّطور الّذي يلحقها تارة تحت تأثير التّغيّرات الاجتماعيّة الكبيرة، الدّينيّة منها والسّياسيّة والعلميّة والاقتصاديّة وغيرها؛ ما يجعل اللّغة لا تعرف الثّبات على حال في الفترات الزّمنيّة المتعاقبة، يتعيّن على الباحث اللّغويّ الوصفيّ تحديد الفترة الزّمنية للمستوى اللّغويّ المستهدف بالدّراسة؛[3] للفصل بين أطوار نموّه وتطوّره المختلفة حتى تكون الدّراسة وصفيّة لا تاريخيّة. [4] على أنّ دقّة النّتائج تتفاوت بتفاوت الفترة الزّمنيّة المحدّدة طولاً وقصرًا،[5] فكلّما كانت الفترة الزّمنيّة المحدودة قصيرة كانت نتائج الدّراسة أكثر دقّةً وعمقًا.

(1). علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربيّ))، محمود السّعران، ص: 54.

(2) - ينظر: في مناهج البحث اللّغوي، أحمد طه حسانين سلطان، ص: 53 – 54، نقلا عن: نحو بحث منهجي في أصول اللّغة، عبد الطّيب، ص: 26؛ وفي الفكر اللّغويّ، محمّد فتح الله، دار الفكر العربيّ، ط: 1، 1410 هـ. 1989م، ص: 61.

(3) - ينظر: المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة. مصر، ط: 3، 1417 هـ .1997م، ص: 181. وفقه اللّغة في الكتب العربيّة، عبده الرّاجحي، ص: 21.

(4) - ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمام حسّان، ص: 14.

(5) - ينظر: في مناهج البحث اللّغوي، أحمد طه حسانين سلطان، ص: 55 – 56.

د- اختيار العينة الكلاميّة:

بعد اجتياز الخطوات السّابقة، يتوجّه الباحث إلى جمع المادّة اللّغويّة أو العينة الكلاميّة المراد وصفها وتحليلها، وعليه أن يتثبت من أمرين اثنين بعد عمليّة الجمع:

* التّأكّد من أنّه استقصى النّصوص اللّغويّة استقراءً، بحيث يغلب على ظنّه أنّه لم يفلت من قبضته أيّ نصّ يمسّ الظّاهرة المدروسة، مهما كانت قيمته، لئلاّ يكون في النّص المتروك " ما يناقض رأيه، أو ما يغيّر فكرته أو ما يعدّلها أو ما يعزّز أدلّته بصورة أقوى ".[1]

* التّأكّد من وثاقة المادّة العلميّة التي جمعها ومصداقيّتها، بأن يتجنّب الوساطة في النّقل قدر الإمكان، إذا كانت المادّة العلميّة نصوصا مدوّنة،[2] وبأن يعتمد في جمعها على من يُعرفون اصطلاحًا بالرّواة اللّغويّين، المتوفّرة فيهم الشّروط أوّلا،[3] وبمعاودتهم الأسئلة المطروحة مع انتقاء الأوقات المناسبة ثانيًا، وكتابة المادّة العلميّة بالكتابة الصّوتيّة أو تسجيلها على الأشرطة والأسطوانات ثالثًا، إذا كانت المادّة العلميّة منطوقة مستقاة من الميدان مباشرة.[4] وبما أنّ اللّغة المنطوقة تفلت في معظم الأحيان من الملاحظة، فعلى الباحث اللّسانيّ أن " يقر أيضًا حسابًا للنّصوص المكتوبة؛ لأنّها هي وحدها التي تمكنه من أن يعرف الألسن القديمة أو النّائية ".[5]

هذه أهمّ الأسس اللّغويّة التي يقوم عليها المنهج الوصفيّ، والتي تمكّنّا من استخلاصها من كتب اللّسانيّات العربيّة التي تعدّ بحقّ ترجمانًا للّسانيات الغربيّة.

---

(1) - في مناهج البحث اللّغوي، أحمد طه حسانين سلطان ، ص: 11.

(2) - ينظر: المصدر السّابق، 45.

(3) - الشّروط الواجب توفّرها في الرّاويّ اللّغويّ : 1- أن يكون من أحسن من يمثّل المستوى اللّغوي المراد وصفه وتحليله . 2-ألاّ تسبق له إقامة طويلة في غير موطن اللّغة أو غير وسطها احترازًا من تأثّر لغته خلالها بلغة أخرى.3-أن يكون خاليا من العيوب النّطقيّة. 4-ألاّ يكون على قدر عال من الثّقافة، فيقع تحت تأثير ثقافته. ينظر: في مناهج البحث اللّغوي، أحمد طه حسانين سلطان، ص: 45 – 46.

(4) - ينظر: المصدر السّابق، ص:46 – 47 ومنهج البحث اللّغويّ بين التّراث وعلم اللّغة، عليّ زوين، ص: 11.

(5) .دروس في الألسنيّة العامّة، فرديناند دي سوسير، تر: محمّد الشّاوش وغيره، ص: 25.

2 / المنعطفات التّاريخيّة الكبرى للمنهج الوصفيّ:

2 / 1 ـ اللّسانيات الوصفيّة من دي سوسير إلى تشومسكي:

لمّا كان المنهج الوصفيّ ينظر إلى اللّغة على أنّها بنية أو نظام، درج عدد غير قليل من الباحثين على تسميته بالمنهج البّنيويّ أو التّركيبيّ structuralisme؛[1] نسبة إلى كلمة ((بنية = structure)) المأخوذة من الكلمة اللاّتينية struere بمعنى بناء.[2]

وارتبط المنهج الوصفيّ أو البنيويّ بِدِي سوسير، بعدما دعا إلى التّمييز بين الدّراسات التّاريخيّة التّعاقبيّة والدّراسات الوصفيّة التّزامنيّة في كتابه ((دروس في الألسنيّة العامّة cours de linguistique générale)).[3] وهو منهج يقتصر عند دي سوسير . كما سبقت الإشارة إليه . على دراسة بنية اللّغة أو بناها في حدّ ذاتها ولذاتها؛[4] " على نحو مستقلّ، ليس فقط بعزلها عن التّاريخ، أو العالم الخارجيّ، بل أيضا عن نسيجها الاجتماعيّ التي تعيش فيه، والعمليّات النّفسيّة التي يقوم بها متكلّموها عند فهمها، أو اكتسابها ".[5]

وما ينبغي التّنبيه إليه والتّنبه له، هو الوصفيّة أو البنيويّة الأمريكيّة التي نشأت وترعرعت . كما يرى بعض الباحثين . في معزل عن بنيوية دي سوسير، بزعامة بلومفيلد،[6] والتي تتميّز بالصّرامة العلميّة والدّقة المنهجيّة؛ لتأثّر رائدها تأثّرًا كبيرا بواطسنWatson العالم النفسيّ السلوكيّ. وقد شرح بلومفيد في كتابه ((اللّغة language)) أسلوبه ومنهجه في الدّراسات

---

(1) . ينظر: محاضرات في علم اللّغة، أحمد مختار عمر، ص: 180. ومدخل إلى اللّسانيات، د، محمّدمحمّد يونس علي، ص: 65.

(2) . ينظر: الكامل الكبير ((قاموس فرنسيّ . عربيّ))، يوسف محمّد الرّضا، مكتبة لبنان، ط: 1، 1996؛ و2 :tome)Robert (Dictionnaire du Françaisprimordial، p: 1023 ،

(3) – ينظر: مدخل إلى اللّسانيات، محمّد محمّد يونس علي، ص: 65.

(4) – ينظر ص: 17. 18 من هذا البحث.

(5) – ينظر: مدخل إلى اللّسانيات، محمّد محمّد يونس عليّ، ص: 67.

(6) – ينظر: اللّسانيّات الوظيفيّة، عبد القاهر المهيري، بحث ضمن بحوث الكتاب المعنون بـ ((أهمّ المدارس اللّسانيّة))، منشورات المعهد القوميّ لعلوم التّربية، تونس، مارس 1986، ص: 39.

اللّغويّة.[1] على أنّ القول بنشأة البنيويّة أو التّركيبيّة الأمريكيّة بعيدةً عن اللّسانيّات الأوروبيّة قول يصعب قبوله عندنا، بل اعترض عليه ثلّة من الباحثين؛[2] لتماثل أسس البنيويتين ومبادئهما إلى درجة ترّجح اطّلاع اللّسانيّين الأمريكيّين على جهود الأوروبيّين اللّسانيّة، بل يقطع بذلك أحمد مختار عمر قائلاً: " وحينما نشر بلومفيد كتابه اللّغة (حوالي سنة 1934) كان على علم بالاتّجاهات الأوروبيّة الحديثة. وكتاب سابير (اللّغة: مقدّمة لدراسة الكلام) يشمل على كثير من النّظريّات التي كانت معروفة إذ ذاك ".[3]

وما أن استوت بنيويّة دي سوسير على سوقها حتى تولّدت منها اللّسانيّات الوظيفيّة، وتكونت ملامحها بقيادة نيكولاي ترباتزكوي[4]NikolaiTrubetzkoy " في حلقة براغ التي استفادت من آراء دي سوسير بقدر ما استغلّت منطلقاتها النّظريّة في أعمالها وكونت لنفسها نظريّة لغويّة ".[5] وقد عمل أندري مارتيناي Andre Martinet في فرنسا، على تصقيل مبادئ هذه النّظرية ومفاهيمها.[6] وتتميّز اللّسانيّات الوظيفيّة عن غيرها " باعتقادها أن البنى الصّياتيّة، والقواعد، والدّلاليّة محكومة بالوظائف التي تؤدّيها في المجتمعات التي تعمل فيها "،[7] وبذلك تكون قد خرجت على مبدإ من مبادئ دي سوسير، وهو مبدأ دراسة

(1) – ينظر: مدخل إلى اللّسانيات، محمّد محمّد يونس عليّ، ص: 68.

(2) .ينظر: المسار الجديد في علم اللّغة، محمّد مراد، ص: 87. ومحاضرات في علم اللّغة الحديث، ص: 17؛ ومدخل للسانيّات سوسير، حنون مبارك، ص: 5؛ تعريف ونقد كتاب ((محاضرات في علم اللّغة العام، فردينان دي سوسير))، كمال بشر، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، مارس 1982م. صفر 1392 هـ، ج: 29، ص: 242؛ والتّفكير اللّغويّ بين القديم والجديد، كمال بشر، ص: .10.

(3) .محاضرات في علم اللّغة الحديث، أحمد مختار عمر، ص: 17.

(4) .عالم روسيّ، ولد عام 1890، متخصّص في اللّغات الفنلنديّة؛ ثمّ اتّجه إلى دراسة اللّغويّات العامّة، كانت له إسهامات جليلة في تأسيس علم وظائف الأصوات، ومن أشهر مؤلّفاته: ((مبادئ الفونولوجيا))، وكانت وفاته عام 1938م. ينظر: قاموس مصطلحات النّقد الأدبي المعاصر، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربيّة، ط: 1، 1421 هـ. 2001م، ص: 141.

(5) – ينظر: اللّسانيات الوظيفيّة، عبد القاهر المهيري، بحث ضمن بحوث الكتاب المعنون بـ ((أهمّ المدارس اللّسانيّة))، ص: 40.

(6) – ينظر: المصدر السابق، ص: 41.

(7) – مدخل إلى اللّسانيّات، محمّد محمّد يونس عليّ، ص: 70.

اللّغة في حدّ ذاتها بغض النّظر عن العناصر الخارجة عن اللّغة؛ باعتبارها نظاما مستقلاّ، متعلّلة ذلك بصعوبة " الفصل بين بنية اللّغة، والسّياق الذي تعمل فيه، والوظيفة التي تؤدّيها تلك البنية في السّياق ".[1]

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى انبثقت من بنيوية دي سوسير من جديد، مدرسة أخرى مغايرة للمدرسة الوظيفيّة، ألا وهي المدرسة الدّانيماركيّة التي تزعمها هيلمسلف[2] Hielmsev بنظريته الغلوسيماطيقيّةGlossématique التي تنظر إلى اللّغة على أساس أنّها شكل أكثر من كونها مادّة. فاللّغة عند هيلمسلف هي " نسق من العلاقات، أما كيفيّة الإبانة عنها فغير مهمّة ".[3]

وظهرت في الأربعينيّات والخمسينيّات من القرن العشرين نظريّة فيرث[4] Firthالسّياقيّة، التي أولت بالغ الاهتمام لعلمي الأصوات والدّلالة. وهي نظريّة تنظر إلى المعنى على أنّه " مركّب من العلاقات السّياقيّة "،[5] لا على أنّه عمليّات ذهنيّة كامنة، متأثرة في ذلك بالعالم

---

(1) – المصدر السابق والصّفحة نفسها.

(2) . لسانيّ دانماركيّ، ولد عام 1899م من عائلة ذات مكانة علميّة مرموقة، والتحقعام 1916م بجامعة كوبنهاغن التي كان والده رئسها يومئذٍ، ومنذ ذلك التّاريخ انكب على دراسة مؤلّفات اللّغويّ الدّانماركي راسك. نال درجة الدّكتوراة عام 1932م في إطار اللّغويّات البلطيقيّة، وتعرّف على مبادئ دي سوسير اللّسانيّة خلال إقامته في فرنسا من 1926 إلى 1927م عن طريق مايوفاندريس. توفي عام 1965م. ينظر: الألسنيّة (علم اللّغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، ص: 246.

(3) – علم اللّغة ((مقدمة للقارئ العربي))، محمود السّعران، ص: 345.

(4) . هو جون روبرت فيرث John Robert Firth، ولد عام 1890 بمقاطعة يوركشير الإنجليزيّة. درس التّاريخ في مرحلته الجامعيّة الأولى، ثمّ انضم إلى الجيش البريطاني، فتنقل معه في عدد من المناطق التي كانت تبسط عليها الأمبراطوريّة البريطانيّة نفوذها في أيام الحرب العالميّة الأولى وما بعدها وكان مدرّسا للّغة الإنجليزيّة في جامعة البنجاب من عام 1919 إلى عام 1928م، ثمّ قفل بعد ذلك إلى بريطانيا ليلتحق بقسم الصّوتيات في جامعة لندن، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى قسم اللّغويّات في مدرسة الدّراسات الشّرقيّة والإفريقيّة التّابع للجامعة نفسه وفي عام 1944 أصبح أوّل أستاذ في اللّسانيات العامّة في انجلترا، وكان له دور كبير في توجيه معظم مدرّسي اللّسانيات في بريطانيا في تلك الفترة. كانت وفاته عام 1960م. له مؤلّفات كثيرة ومن أهمّها: (Speech) و((The word" phoneme") و(The technique of semantics). ينظر: الألسنيّة (علم اللّغة الحديث، المبادئ والأعلام)، ميشال زكريا، ص: 281. 282.

(5) – مدخل إلى اللّسانيّات، محمّد محمّد يونس علي، ص: 78، نقلا عن:

J.R Firth, papers in linguistics 1934 – 1951 (London: Oxford University {103}press, 1957) p 19 .

الإنتربولوجيّالينوفسكيB. Malinowski، الذي اهتدى إلى مسألة سياق الحال إثر فشله في ترجمة نصوص سجّلها من سكّان جزر تروبرياندTrobriand إلى اللّغة الإنجليزيّة كلمةً كلمةً.[1] ولم يكن لنظريّة فيرث أن تستغني عن تراث دي سوسير، بل استفادت منه أيّما استفادة " لاسيّما في مجال العلاقات الاستبداليّة والائتلافيّة، التي وظّفها في منهج الإبدال حيث تدخل العناصر اللّغويّة في علاقات عموديّة بين العنصر المذكور، وغيره مما يمكن أن يحلّ محلّه، وعلاقات أفقيّة بين العناصر المتجاورة ".[2]

والجدير بالذّكر، هو أنّ ما كتب لهذه المدرسة السّياقية، ـ التي عرفت بالمدرسة الاجتماعيّة البريطانيّة ـ من التّأثير في رواد التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث لم يحظ به غيرها من المدارس الأخرى، إذ تبنّى كلّ من تمّام حسّان وكمال بشر ومحمود السّعران الكثير من مبادئها،[3] ولم يستغن عنها عبد الرّحمن أيّوب، غير أنّه كان كثير الاستئناس بآراء المدرسة الوصفيّة الأمريكيّة،[4] على الرّغم من أنّه من خريجي جامعة لندن.

وفي عام 1957م، انطلقت في الأوساط اللّغويّة مدرسة لها أهميّة كبرى وأثر بالغ، إذ " أثارت جدالا عنيفا أحيانا ومناقشات خصبة بين دعاتها ومنافسيها، وهي مرّت منذ بدايتها بمراحل متلاحقة متباينة وتفرعت أشكالا"،[5] يضيق بها إطار بحث واحد. وتلكم المدرسة هي المدرسة التّوليديّة التّحويليّة أو البنيويّة التّحويليّة. كما يروق لبعض الباحثين.[6] التي فجّر ثورتها نعوم تشومسكي، والتي يعتبرها كثير من اللّغويّين مدرسة وصفيّة تفسيريّة في مقابل

(1) . ينظر: علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، د، يحي عبانية وغيره، دار الكتاب الثّقافي، أربد. الأردن ، 1426 هـ. 2005، ص:36.

(2) – مدخل إلى اللّسانيّات، محمّد محمّد يونس عليّ، ص: 80.

(3) . ينظر: العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 131.

(4) . دراسات نقديّة في النّحو العربيّ، عبد الرّحمن أيّوب، بدون معلومات النّشر، ص: هـ، و11، و21، و33.

(5) – المدرسة التّوليديّة التّحويليّة، محمّد الشّايب، بحث ضمن بحوث الكتاب المعنون بـ ((أهم المدارس اللّسانيّة))، ص: 75.

(6) . ينظر: قاموس مصطلحات النّقد الأدبيّ المعاصر، سمير حجازي، ص: 132.

المدرسة الوصفيّة التّقريريّة؛ لعودتها بالدّراسات اللّغويّة إلى النّزعة العقلانيّة والمنطقيّة، بعد أن دام استبعاد الوصفيّة التّقريريّة إيّاها قرابة نصف قرن.[1]

فهذه هي أهمّ المنعطفات التي عبرتها اللّغويّات الوصفيّة . الطّابع المميّز للسانيّات القرن العشرين ، إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن، من وضوح المنهج وانضباط النّظريّات على تعدّد اتّجاهاتها، غير أنّ اللّسانيّات لا تزال في تطوّر مستمرّ، إذ أفرزت أخيرًا اللّسانيات التّخاطبيّة،[2] التي قد تعدّ الطّابع المميّز للسانيّات القرن الواحد والعشرين.[3] وبالتّحديد عند من يرى أنّ التّفكير اللّسانيّ الحديث تأسّس لأوّل مرّة على يد دي سوسير من دون أن يبحث عن منطلقاته الأوّليّة. وفي مقابل هؤلاء، طائفة من اللّسانيّين يعاودون فحص التّراث اللّغويّ بحثًا عن المنطلق الأصلي للبحث اللّسانيّ المعاصر، ناقضين بذلك ما كاد يُجْمِعُ عليه الباحثون من نسبة اللّسانيات إلى دي سوسير، بدعوى أنّ العلوم لا تنشأ طفرة.[4]

(1) .ينظر: النّظريات اللّغويّة المعاصرة وموقفها من العربيّة، عبده الرّاجحي، ص:246.

(2) – مدرسة لسانيّة تأخذ في حسبانها العوامل المنطقية والبنيوية وعناصر التخاطب وبخاصة السّياق أثناء تحليل عملية التخاطب وتفسيرها . ينظر: مدخل إلى اللّسانيّات، محمّد محمّد يونس عليّ، ص: 105- 106.

(3) – المصدر السابق، 106.

(4).ينظر: التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدّي، ص: 14. 15.

2 / 2 ـ نظريّة فيرث السّياقية وامتدادها في الوطن العربيّ:

أ ـ عرض موجز لنظريّة فيرث السّياقيّة:

استعار فيرث مصطلح ((سياق الحال)) من الأنثروبولوجي مالينوفسكي، ووظّفه في بحوثه اللّغويّة، وقد تعدّدت المصطلحات التي تطلق على مفهوم هذا المصطلح، بحيث يعبّر عنه أحيانًا بسياق الحال، وأحيانًا أخرى بمقتضى الحال، والمقام، والمسح اللّغويّ، والماجريات أو سياق الموقف.

وعلى الرّغم من اختلاف هذه المصطلحات من النّاحية المعجميّة، فإنّها تدلّ على مفهوم واحد في الاصطلاح من دون أدنى فرق يذكر.[1]

واهتمام فيرث بسياق الحال لم يكن بدعةً في الدّراسات اللّغويّة، إذ أدرك الفلاسفة وعلماء اللّغة المتقدّمون ما للسّياق من وظيفة في تحديد المعنى المراد. وسياق الحال من الأفكار التي طرحت منذ أيام أفلاطون وأرسطو، فقد تعرض لها أفلاطون في كتابه ((فيدروس)) كما تطرق إليها أرسطو في كتابه ((فنّ الشّعر)).[2] وقدّ تنبّه لفكرة سياق الحال ((مقتضى الحال)) كذلك علماء اللّغة العربيّة المتقدّمون؛ وفي مقدّمتهم عبد القاهر الجرجانيّ، الذي استرسل في الحديث عن النّظم والسّياق وما لهما من أثر في تحديد قيمة الكلمة ودلالتها.[3] وأدرك فندريس كذلك الدّور الذي يؤدّيه السّياق في تحديد معنى الكلمة،[4] فالسّياق في نظره هو " الذي يخلّص الكلمة من الدّلالات الماضية التي تتركها الذّاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية ".[5]

---

(1) .ينظر: علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة وغيره، ص: 37.

(2) . ينظر: المرجع السّابق، نقلاً عن: فنّ الشّعر، أرسطوطاليس، تر: عبد الرّحمن بدوي، دار الثّقافة، بيروت، ص: 21.

(3) .ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. مصر، ص: 56.51، و105.80.

(4) . علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة وآمنة الزّعبي، ص 38، نقلاً عن: اللّغة، فندريس، تر: عبد الحميد الدّواخلي ومحمّد القصاص، مكتبة الأنجو مصريّة، القاهرة. 1950، ص: 231.

(5) .علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة و آمنة الزّعبي، ص: 38.

ومع هذا كلّه، فإنّ فيرث كان له الفضل في لفت أنظار لغويّي العصر الحديث إلى أهميّة السّياق في الدّرس اللّغويّ، بأن صاغ قضايا السّياق في قالب نظريّ علميّ متكامل الأجزاء ومحكم البناء.[1] وتلتقي نظرية السّياق مع آراء علماء العربيّة المتقدّمين وبالتّحديد علماء البلاغة منهم، وإن كانت تختلف عن آراء هؤلاء المتقدّمين من حيث المنهج والتّطبيق بصفتها نظرية متكاملة في دراسة المعنى.[2]

هذا، وقد حدّد فيرث عناصر نظريّته السّياقيّة في أمور يمكن تسميّتها بسياق الحال أو سياق الموقف، وهو عين ما عُرف في الفكر اللّغويّ القديم بالمقام، ويعود تحديد هذه العناصر إلى أنّ فيرث وأصحابه لا يقتصرون على ما يعرف بالسّياق اللّغويّ فحسب،[3] بل يتجاوزونه إلى سياق الموقف الذي يقوم على ثلاثة عناصر، هي:[4]

* شخصية المتكلّم والمتلقي وتكوينهما الثّقافي، ومن معهما ممّن يشهدون الحدث الكلاميّ وما يقومون به من دور في المراقبة أو المشاركة، وما يرافق هذا الحدث من أحداث غير كلاميّة، مثل الإشارات والانفعالات وتعبيرات الوجه وغيرها.

* العوامل البيئيّة والظّواهر الاجتماعيّة والأوضاع الاقتصاديّة والسيّاسية المتصلة بالحدث الكلاميّ وذات العلاقة بالسّلوك اللّغوي أثناء الكلام، وتشمل الزّمان والمكان والطّقس.

* أثر الحدث اللّغويّ في المستمعين، كالإقناع والفرح والضّحك والألم والاعتراض وما سوى ذلك.

---

(1) .ينظر: المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

(2) .ينظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، تمّام حسّان، ص: 182؛ ومقدّمة لدراسة اللّغة، حلمى خليل، ص: 153.

(3) . يتفرّع السّياق عند فيرث إلى صنفين: 1 . السّياق اللّغويّ، وتمثّله العلاقات القائمة بين مستويات التّحليل اللّغويّ الأربع. 2 . سياق الحال: ويمثّله العالم الخارجي غير اللّغوي، المتمثّل في الظّروف الاجتماعيّة والبيئة النّفسية والثّقافيّة للمشاركين في الحدث الكلامي وغيره

(4) . ينظر: اللّغة والمجتمع ((رأي ومنهج))، محمود السّعران، ص: 30. وأصول تراثيّة في اللّسانيّات الحديثة، كريم زكي حسام الدّين، ط: 3، 1421 هـ . 2001 م، ص:46؛ وعلم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة وغيره، ص: 38. 39.

وبإمعان النّظر في هذه العناصر، يتجلّى أنّ أهمّ خصائص السّياق يتمثّل عند فيرث في إبراز الدّور الاجتماعيّ للمتكلّم ومحيطه، ولا يخفى ما في هذا التّوجّه من تأثر بدي سوسير.[1] ويعتبر السّياق عند فيرث في مقدّمة الخطوات التي لا يمكن للباحث في دراسة المعنى الاستغناء عنها، وإن لم يكن الخطوة الوحيدة.

والسّياق في نظر فيرث، هو السّبيل إلى دراسة المعنى، على أنّه ينبغي للباحث اللّغوي وهو يدرس الكلام أن يدرسه على خطوات، وتمثّل هذه الخطوات فروع اللّسانيات؛ حيث إنّه يقوم بتحليل الكلام إلى عناصره ووحداته؛ فيحلّله أوّلاً على المستوى الصّوتي، ثمّ على المستوى الفونولوجي، ثمّ المستوى الصّرفيّ فالمستوى النّحوي، فالمستوى الدّلالي أخيرًا.[2] ويعني هذا أنّ " المعنى عند فيرث كلّ مركّب من مجموعة من الوظائف اللّغويّة، بمعنى أنّ التّحليلات السّابقة ليست هي المعنى، بل إنّها ليست دراسة المعنى، فالوصول إلى المعنى يتمّ من خلال الرّبط بين النّتائج التي تفضي إليها هذه التّحليلات مجتمعة ربطًا يضع في اعتباره العناصر المشكّلة لسياق الحال ".[3]

وكان ممّا ترتب على هذا التّصوّر للمعنى، أن أهمل فيرث المعنى في دراسة المفردة؛ متأثرًا في ذلك برأي الوصفيّين الشّكليّين، الذين يمجّون اتّخاذ المعنى مطيّة إلى دراسة اللّغة. وبما أنّ المروق إلى المعنى غير ممكن إلاّ بتحليل جميع شرائح اللّغة تحليلاً تركيبيًا بنيويًّا. كما يفهم من أعمال فيرث اللّغويّة.، فإنّ نظريّته السّياقيّة نظريّة تركيبيّة بنيويّة.[4]

(1) .ينظر: أصول تراثيّة في اللّسانيّات الحديثة، كريم زكي حسام الدّين، ص: 45.

(2) .ينظر: علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة و آمنة الزّعبي، ص: 39.

(3) .المصدر السّابق، ص 39. وينظر: علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربيّ))، محمود السّعران، ص: 312.

(4) .ينظر: العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ ((دراسة في الفكر اللّغوي العربي الحديث))، حلمى خليل، ص: 135.

وخضعت لسانيات فيرث من بعده لتطويرات جمّة أجراها طلاّبه، وعلى رأسهم هاليداي Halliday، الذي طوّرها في إطار لسانيّاته النّظاميّة.[1] على أنّ اللّسانيات النّظاميّة عند هاليداي تتألّف من ثلاثة عناصر: الشّكل، ويشمل قواعد النّحو والمفردات؛ والمادّة، وتتمثّل في الجانب الصّوتي والكتابة للّغة؛ والسّياق، ويهتم بالعلاقة بين الشّكل والمواقف.[2]

بـ الانتقادات الموجّهة إلى نظريّة فيرث السّياقيّة:

وعلى الرّغم من ذيوع نظريّة فيرث السّياقيّة بسبب قيمتها العلميّة، فإنّها ـ كبقية النّظريّات اللّغويّة وغيرها ـ لم تسلم من نقد النّقاد اللّغويّين. وصوّب عددٌ من المهتمّين بالقضايا اللّغويّة انتقادات شديدة أبرزوا من خلالها ملامح الضّعف والفتور التي اعترت النّظريّة. وفي مقدّمة هؤلاء المنتقدين، فوزي الشّايب الذي يزعم أنّ نظريّة فيرث السّياقيّة إذا ما لخّصت في صورة هذه المعادلة البسيطة: ((المعنى = السّياق القابل للملاحظة)) لا تقدر على التّعامل مع عمق اللّغة،[3] وإنّما " مع أبسط حالات استعمال اللّغة وأكثرها سذاجة، ففي معظم الحالات التي يتمّ فيها الاتّصال اللّغويّ (رواية قصّة، أو إعطاء محاضرة، أو القيل والقال حول أحوال الجيران، أو قراءة نشرة الأخبار...)، فإنّ ملاحظة الحالة التي يجد فيها المتكلّم والسّامع (طرفا العمليّة اللّغويّة) نفسيهما، لن تخبرنا ـ إن وُجِد ما يمكن أن تخبر به ـ إلاّ بالقليل بشأن معنى الرّسالة ".[4]

ومن اللّسانيّين الذين تجشموا عبء تقويم نظريّة فيرث السّياقيّة، ليتشLeech، ويرى هذا اللّسانيّ أنّ نظريّة فيرث وقعت ضحيّة لمغالطة أربطة الحذاء اللّغويّة. على أنّ مؤلّفي كتاب ((علم اللّغة المعاصر: مقدّمات وتطبيقات)) أسقطا عنّا مهمّة شرح هذه العبارة الملغزة، بأن

(1). ينظر: علم اللّغة النّظاميّ ((مدخل إلى النّظريّة اللّغويّة عند هاليداي))، محمود أحمد نحلة، ملتقى الفكر، ط: 2، 1422 هـ. 2001م، ص: 5.

(2). ينظر: أصول تراثيّة في اللّسانيات الحديثة، كريم زكي حسام الدّين، ص: 48.

(3). ينظر: علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة وآمنة الزّعبي، ص: 43. 44.

(4). المصدر السّابق، ص: 44.

نقلا مقصودها عن فوزي الشّايب[1] بقولها : " ويقصد بهذا التّشبيه أنّ اللّغويّ في استعانته بالنّظريّة السّياقيّة يشبه من يحاول أن يرفع نفسه بأربطة حذائه الذي يلبسه، وهذا حال التّركيبيّ السّياقيّ الذي يحاول أن يصف المعنى بالاستعانة باللّغة، ممّا يدفع إلى حتميّة السّؤال: كيف يتأتّى لمعنى اللّغة التي استعملها لوصف المعنى، أن يوصف هو نفسه ".[2]

وهذه العيوب والثّغرات. من وجهة نظر فوزي الشّايب ونؤيّده في ذلك. هي التي أعاقت نظريّة فيرث السّياقيّة عن تحقيق نجاح واسع؛ على أنّ نجاحها في الوطن العربيّ يفوق على كلّ حال ما أحرزته النّظريات الأخرى. ومع أنّ هذه النّظريّة اعتنت بنواحي المعنى الاجتماعيّة والسّياقيّة التي أغفلها معظم من سبق صائغها (فيرث) من اللّسانيّين، فإنّ مَرْدُودَها للّدرس اللّساني كان معاكسًا في عمومه لما هو مقصود، إذ إنّها أسهمت في صرف اهتمام الباحثين الذين تبنّوها إطارًا منهجيًا لدراسة اللّغة عن الدّراسة الحقيقيّة للمعطيات بدل أن توجِّههم إليها.[3]

ج ـ امتدادها في الوطن العربيّ:

سبق أن لمحنا إلى أنّ نظريّة فيرث لقيت من رواد اللّسانيات في الوطن العربيّ من القبول ما لم يحظ به سواها من النّظريّات اللّسانية، المعاصرة لها أو التي سبقتها في الظّهور. ومن الثّابت أنّ الأعمال اللّغويّة لهؤلاء الرّواد الوصفيّين العرب كان لها من الذّيوع والامتداد في الوطن العربيّ بفعل تآليفهم وطلاّبهم، بحيث لم تتقلّص إلاّ بظهور دعاة التّوليديّة في السبعينيّات من القرن العشرين.

---

(1). تناول فوزي الشّايب نظرية فيرث السّياقيّة بالنّقد في كتابه ((محاضرات في اللّسانيّات))، وبالتّحديد في الصّفحتين: 462. 463، لكنّ الباحث لم يقف على أثر الكتاب، ما جعله يعتمد على ما نقله مؤلّفا كتاب ((علم اللّغة المعاصر: مقدّمات وتطبيقات)) منه.

(2). علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة و آمنة الزّعبي، ص: 44 نقلاً عن محاضرات في اللّسانيات، فوزي الشّايب، منشورات وزارة الثّقافة، عمّان، 1999، ص: 462. 463.

(3). علم اللّغة المعاصر ((مقدّمات وتطبيقات))، يحي عبابنة و آمنة الزّعبي، ص: 44.

وإذا ما علمنا أنّ هؤلاء الرّواد الوصفيّين تربّعوا مقاعد التّدريس في الجامعات المصريّة وغيرها، فاحتكّوا من خلال التّدريس بعدد كبير من الطلاّب المصريّين والطّلاب الوافدين من بقيّة الدّول العربيّة، يتبيّن جليًّا أنّ تأثير هؤلاء الرّواد في الدّرس اللّغويّ الحديث لم يكن هيّنًا. ويعني كلّ هذا أنّ نظريّة فيرث انفردت من مجموع نظريات المنهج الوصفيّ التّقريريّ بقيادة الدّرس اللّغويّ العربيّ الحديث ردحًا من الزّمن، ولم تنازعها في ذلك إلاّ المدرسة الشّكليّة التي تزعّمها عبد الرّحمن أيّوب. ويعود الفضل فيما حظيت به نظريّة فيرث من امتداد في الوطن العربيّ إلى طلاّبه النّجباء الذين كانت لهم الرّيادة في اللّسانيات العربيّة الحديثة، من أمثال تمّام حسّان، وكمال بشر، ومحمود السّعران.

د ـ تعدد نظريات المنهج الوصفيّ:

تفرعت عن المنهج الوصفيّ الذي أرسى دعائمه فردينان دي سوسير نظريات وصفيّة كثيرة، وإن كانت تلتقي في المبادئ الرّئيسة والمعالم الكبرى للمنهج الأم من أولوية اللّغة المحكيّة على اللّغة المكتوبة، وتقديم الدّراسة الآنيّة على الدّراسة التّاريخيّة وغيرها من المبادئ التي جاهد دي سوسير من أجلها.[1] وتحولّت هذه النّظريات الوصفيّة مع تعاقب الأيام إلى ما يمكن وصفه بمدارس لسانية؛ نظرًا لما تتميّز به كلّ منها عن الأخرى في تحديد عناصر التحليل اللّغويّ وطرق تحليل الأحداث اللّغويّة.

ومن هذه النّظريات على سبيل المثال لا الحصر، نظريّة هيلمسيفالغلوسيماطيقيّة، ونظريّة فيرث السّياقيّة.

وبما أنّ اللّسانيات العربيّة الحديثة نسخة عن اللّسانيات الغربيّة من النّاحية المنهجيّة، فإنّ هذه الأخيرة ألقت بظلالها ـ من حيث المنهج الأمّ الواحد وتعدّد النّظريّات ـ على اللّسانيات العربيّة؛ إذ لا تكاد تظهر نظريّة لسانية حديثة وتستوي على سوقها حتى يسري صداها إلى

(1) ـ ينظر: المرايا المقعّرة ((نحو نظريّة نقديّة عربيّة))، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة ((سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة يصدرها المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب))، الكويت، جمادى الأولى 1422 هـ ـ أغسطس 2001م، ص: 198.

الوطن العربيّ بالتّأييد أو الرّفض؛ فتنوّعت اتّجاهات اللسّانيّات العربيّة بالقدر نفسه الذي تنوعّت به اتّجاهات البحث اللّسانيّ في الغرب.[1]

3 / الفرق بين المنهج الوصفيّ والمناهج اللّغويّة الأخرى:

3 / 1ـ الفرق بين المنهج الوصفيّ والمنهج التّاريخيّ:

إذا كان المنهج التّاريخيّ يدرس الأطوار المتعاقبة للّغة دراسة طوليّة؛ بمعنى أنّه " يتتبّع الظّاهرة اللّغويّة في عصور مختلفة، وأماكن متعدّدة ليرى ما أصابها من التّطوّر، محاولا الوقوف على سرّ هذا التّطوّر، وقوانينه المختلفة "،[2] فإنّه يتميّز عن علم اللّغة الوصفيّ. الموسوم بأنّه علم ساكن هدفه وصف اللّغة، لاسيّما المنطوقة منها، . بفاعليّة مستمرّةتعين عليعرض التّغيرات اللّغويّة، [3] فضلاً عن أنّه يعتمد على اللّغة المكتوبة والمخطوطات والنّقوش، ما يجعله على صلة بعلم الآثار ومناهجه ومعطياته[4] غير أنّه من الصّعب " الفصل بين النّوعين في مجال التّطبيق العمليّ، وذلك لأنّ كلّ المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفيّ، قابلة من النّاحيّة العمليّة للاستعمال مع الفرع التّاريخيّ ".[5]

3 / 2 ـ الفرق بين المنهج الوصفيّ والمنهجين المقارن والتّقابليّ:

إذا كان المنهج الوصفيّ يتناول بالدّراسة لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه، فإنّ المنهج المقارن يختلف عنه في أنّه يدرس لغتين أو أكثر من أسرة لغويّة واحدة أو من أحد فروعها، من دون تقيّيد زمنيّ ومكانيّ مسبقًا، بهدف إثبات القرابة اللّغوية

(1) .ينظر: في الفكر اللّغويّ، محمّد فتح الله، ص: 4.

(2) – المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، رمضان عبد التّواب، ص: 196.

(3) – ينظر: أسس علم اللّغة، ماريو باي، تر وتع: أحمد مختار عمر، ص: 137.

(4) – ينظر: علم اللّسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان – الأردن، ط: 1، 2002م – 1422هـ، ص: 130.

(5) – أسس علم اللغة، ماريو باي، تر وتع: أحمد مختار عمر، ص: 137.

بين اللّغات،[1] أو بهدف " التّعرف على الاستخدام الأقدم والصّورة الأصل ".[2] وكذلك الشّأن بالنّسبة للمنهج التّقابليّ، إلا أنّه يختلف عن المقارن في حريّة التّنقل بين الأسر اللّغويّة لغرض بيان الفروق وأوجه الشّبه بين اللّغات خدمةً لأهداف تعليميّة.[3]

3 / 3 ـ الفرق بين المنهج الوصفيّ والمنهج المعياريّ:

المنهج المعياريّ " هو ذلك المنهج الّذي يعنى بوضع الضّوابط والقوانين التي تحكم الاستعمال اللّغويّ في مستوياته المختلفة بحيث يعدّ الخروج عليه ضربًا من ضروب اللّحن والغلط، ويكون الالتزام بها التزاما بالمستوى الصّوابيّ الّذي يسير عليه المتكلّمون باللّغة المعنيّة، وهذا هو الطّابع الغالب على مؤلّفات النّحو والصّرف ".[4]

ويختلف هذا المنهج عن المنهج الوصفيّ في أنّه تعليميّ بحت، وأنّ هدفه الأساس هو " بيان الخطإ والصّواب في اللّغة ومحاولة فرض قواعده على مستعملي اللّغة؛ حفاظًا عليها وعلى أصولها "،[5] بتجاوز مجرّد الوصف إلى الفروض العقليّة أو مسائل القياس المنطقيّ، ما دفع بالوصفيّين إلى الاعتقاد بأنّه لا يصلح أن يكون منهجَ بحثٍ بالمفهوم العلميّ، بل إنّه منهج تقليديّ تعليميّ أوّلاً و آخرًا.[6]

---

(1)- ينظر: علم اللغة، عبد الله سويد وعبد الله علي مصطفى، ص: 53، نقلا عن: مدخل إلى علم اللغة، محمد حسن عبد العزيز، دار النمر، القاهرة. مصر، 1983، ص: 285، وعن تاريخ علم اللغة، موفين، ص: 193.

(2) – علم اللّغة، عبد الله سويد وعبد الله علي مصطفى، ص: 61. وينظر: في علم اللّغة التّقابليّ ((دراسة تطبيقيّة مع مدخل لدراسة علم اللّغة))، أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعيّة، 2002، ص: 20. 22.

(3) – ينظر: علم اللّغة، عبد الله سويد وعبد الله علي مصطفى، ص: 61.

(4) – المدخل إلى البحث اللّغويّ، محمّد السّيد عليّ بلاسي، الدّار الثّقافيّة للنّشر، ص: 47، نقلا عن: الموجز في البحث اللّغويّ، محمد سعد، 1914 هـ، ص: 38. 39، نقلا عن: البحث اللّغويّ بين النّظريّة والتّطبيق، محمد عفيفي، ص: 93.

(5) – المدخل إلى البحث اللّغويّ، محمّد عليّ بلاشي، ص: 63.

(6) – ينظر: المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

3 / 4 ـ الفرق بين المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ والمنهج الوصفيّ التّفسيريّ:[1]

يختلف المنهج الوصفيّ التّفسيريّ المتمثّل في المنهج التّوليديّ التّحويليّ عن المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ على تعدّد اتّجاهاته فيما يأتي:

أ- كما سبق التّعرض له، فإن المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ يتّخذ النّصوص اللّغويّة، المنطوقة منها والمكتوبة موضوعا له، بينما يتّخذ المنهج التّحويليّ قدرة المتكلّم على إنشاء جمل غير محدودة لم يسمعها من قبل، موضوعًا له.

ب- يؤمن المنهج التّوليديّ التّحويليّ بضرورة الحدس والتّخمين، على أن يعقبهما اختبار؛ تقويمًا للفروض اللّغويّة المتضاربة، بخلاف المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ الّذي يرى ضرورة نبذ الحدس والتّخمين واستبعادهما عن الدّراسات اللّغويّة، معتمدا أوّلاً وآخرًا على وسائل الاستكشاف.

ج- يرمي المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ إلى تصنيف عناصر اللّغة المدروسة، في حين يتمثّل هدف المنهج التّوليديّ التّحويليّ " في القواعد النّحويّة الكامنة وراء الجملة "؛[2] و" هذا يعني الكشف عن وجود عدد غير متناه من الجمل في أيّة لغة وتوضيح أيّ نوع من سلاسل الكلمات تشكّل جملا، وأيّها لا يشكّل جملا. وكذلك وصف البنية النّحويّة لكلّ جملة ".[3]

د- وفي حين يعتقد أتباع المنهج الوصفيّ التّصنيفيّ بأنّ كلّ لغة تنفرد ببنية خاصة بها، ما يعني أنّ اللّغات الإنسانيّة مختلفة اختلافًا لا نهاية له، يرى التّوليديّون أن اللّغات تتشابه على مستوى البنية العميقة؛ فيحاولون الكشف عن هذه التّشابهات الكليّة،[4] وأنّ الاختلاف الملحوظ بين اللّغات اختلاف في أشكالها فسحب، وليس في الطّبيعة اللّغويّة.[5]

---

(1)- ينظر: المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّواب، ص: 187.

(2). المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

(3) –المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّواب، ص: 187.

(4) – المصدر السّابق والصّفحة نفسها.

(5) . ينظر: النّظريات اللّغويّة المعاصرة وموقفها من العربيّة، عبده الرّاجحي، بحث ضمن كتاب تذكاريّ بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويّا، ص:246. 247.

هـ - إذا كان كثير من أصحاب المنهج الوصفيّ يستبعدون المعنى عن الدّراسة اللّغويّة، مهتمّين بالشّكل الخارجيّ للّغة، فإنّ التّوليديّين عملوا على نقيض ذلك؛ فاعتبروا المعنى في التّحليل اللّغويّ أمرا لا بدّ منه عند شرح العلاقة بين الجمل " التي تحمل نفس المعنى وتختلف في ظاهر تراكيبها ".[1]

4 / المنهج الوصفيّ تقييمًا[2] وتقويمًا:

4 / 1ـ المنهج الوصفيّ تقييمًا ((المكانة العلميّة للمنهج الوصفيّ)):

تتجلّى القيمة العلميّة أو المكانة العلميّة للمنهج الوصفيّ في الدّراسات اللّغويّة الحديثة، في أنّ كلاّ من المنهج المقارن والتّاريخيّ والتّقابليّ يعوّل عليه بشكل كبير في معالجة القضايا اللّغوية الوثيقة الصلة به.

فمن أجل إجراء المقارنة بين اللّغات المنتميّة إلى أسرة واحدة يجب أن تتمّ دراسة هذه اللّغات. كلّ على حدة. دراسة وصفيّة تامّة؛ تمهيدًا إلى المقارنة.[3] وعلى هذا المسار المنهجيّ تسير الدّراسات اللّغويّة التّاريخيّة، إذ هي بدورها تعتمد على " دراسات وصفيّة سابقة لكل ظاهرة من الظّواهر، في كل عصر من العصور، ليستطيع تتبّعها ومعرفة ما حدث فيها من تغيير "،[4] ما لا يترك مجالا للشّك في أن الدّراسات التّقابليّة تنطلق من نتائج الدّرس الوصفيّ؛ لأنّ المقابلة لا تكون إلاّ بعد الوقوف على خصائص المادّة المدروسة بطرق علميّة صحيحة.[5]

(1) - ينظر: المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّواب، ص: 188.

(2) . يستعمل الباحث لفظ ((تقيّيم)) بمعنى بيان القيمة وتقديره ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة بمصر، مكتبة الشّروق الدّوليّة، ط: 4، 1426 هـ. 2005م، مادة: ق ي م، ص: 771.

(3) - علم اللّغة، عبد الله سويد وعبد الله علي مصطفى، ص: 53.

(4) - المصدر السابق، ص: 55.

(5) - ينظر: مبادئ اللّسانيّات، أحمد محمد قدّور، دار الفكر، دمشق. سوريا، ط: 2، 1419هـ. 1999م، ص: 24.

4 / 2ـ المنهج الوصفيّ تقويمًا ((الانتقادات الموجّهة إلى المنهج الوصفيّ)):[1]

وجّه كثير من الباحثين، وبخاصة أتباع المدرسة التّوليديّة التّحويليّة، انتقادات لاذعة إلى المنهج الوصفيّ، واصفين إيّاه بالقصور في نواحٍ متعدّدة، لعلّ أبرزها ما يلي:

أ-المنهجالوصفيّ مهووس بالانغلاق على وصف اللّغة؛ فيتجنّب تعليل الظّواهر اللّغويّة، عاجزًا عن تحديد الصّحيح والسّقيم من الاستعمال اللّغويّ، إذ إنّه " يحاكي فقط الملامح السّطحيّة للعلم من غير أن يملك محتواه الفكري ذا المغزى ".[2]

ب - إنّه منهج تعوزه الشّموليّة، إذ يظلّ حصره لظواهر اللّغة ناقصا تبعًا للنّقص الّذي غالبًا ما يلازم المادّة اللّغويّة المجموعة لغرض الوصف، ما يجعل تمثّلها للّغة تمثّلاً جزئيًّا لا يشمل كلّ جوانبها وأطرافها.

ج-القواعد اللّغويّة التي يتوصّل إليها هذا المنهج إثر دراسة لغة ما، في فترة زمنيّة ما، قواعد مضطربة تختلف من فترة زمنيّة لأخرى، كما أن تحديد المستوى اللّغويّ يقف حائلاً من دون الوقوف على قواعد لغويّة عموميّة.

د. معظم النّظريّات التي تمخضت عن هذا المنهج أهملت دراسة المعنى، وأخذت تنظر إلى الإنسان وكأنّه آلة متحرّكة وفق قوانين تحدّدها مواقف وظروف معيّنة.

---

(1) - ينظر: المدخل إلى البحث اللّغويّ، محمد السّيد علي بلاسي، ص: 47. وفي علم اللّغة العام، شرف الدّين عليّ الرّاجحي، ص: 24؛ وتشومسكي: فكره اللّغويّ وآراء النّقاد فيه، صبري إبراهيم السّيد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة. مصر، 1409 هـ. 1989م، ص: 55؛ وتشومسكي والثّورة اللّغويّة، جون سيرل، مجلّة الفكر العربيّ، معهد الإنماء العربيّ، آزار (مارس) 1979م، س: 1، 1979م، ع: 8. 9، ص: 126.125.

(2). تشومسكي والثّورة اللّغويّة، جون سيرل، ص: 125.

5 ـ ملامح وصفيّة في التّراث اللّغويّ العربيّ:

إنّ المتأمّل في الأصول اللّغويّة التي شُيِّد بها التّراث اللّغويّ العربيّ، يتلمّس ملامح وصفيّة متقدّمة على زمانها، ولم يدركها الغرب إلا في أوائل القرن العشرين،[1] وبخاصّة فيما يتعلّق بما ينبغي اتّخاذه من الخطوات والاحتياط أثناء جمع العينة الكلاميّة. ويمكن إجمال هذه الملامح الوصفيّة فيما يأتي:

5 / 1 ـ الاتّصال المباشر بالواقع اللّغويّ:

إذا كان الاتّصال المباشر بالواقع اللّغويّ الّذي هو الاستعمال، أصلاً من أصول النّحو الوصفيّ، فإنّه كان ـ قبل أن يدرك الغرب ذلك ـ " أصلا من أصول النّحو العربيّ؛ نتيجة لطبيعة الحياة العربيّة ولطبيعة الحركة العلميّة التي نشأت في مناخ عام أساسه النّقل والرّواية، وقد أدّى هذا الاتّصال إلى أن يكون في النّحو اتّجاه وصفيّ في تناول كثير من ظواهر اللّغة"،[2] وبموجبه كانت الدّراسات العربيّة الأولى أقرب إلى الوصفيّة منها إلى المعياريّة.[3]

ومن أمثلة هذا الاتّصال، أن اللّغويّين والنّحاة الأوائل من أمثال أبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) والخليل (ت 170 هـ) والكسائيّ (ت 189 هـ) حرصوا على تلقي النّصوص مشافهةً من الرّواة والأعراب ونقلها عنهم؛ استقراءً للّغة لاستنباط قواعدها. وهكذا كانت البادية من أهم مصادر الدّراسات اللّغويّة المبكرة عند العرب.[4]

ولم يقتصر النّقل والمشافهة على الأئمّة النّحاة الكبار في القرن الثّانيّ الهجريّ، بل استمر مع لغويّي القرنين الثّالث والرّابع الهجريّين، وعلى رأسهم ابن جنيّ الذي خلف كتبا تزخر بالنّقولاتوالمشافهات عن الرّواة والأعراب،[5] من ذلك ما يرويه عن لقاءاته مع أبي عبد الله

---

(1) . ينظر: أهميّة الرّبط بين التّفكير اللّغويّ عند العرب ونظريّات البحث اللّغويّ الحديث، حسام البهنساوي، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 1414 هـ. 1994م، ص: 6. 7.

(2) – اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، تمّام حسان، ص: 37.

(3) – ينظر: مدرسة الكوفة ومنهجها ي دراسة اللّفة والنّحو، مهدي المخزومي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة. مصر، 1958، ص: 72.

(4) – ينظر: منهج البحث اللّغويّ بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، علي زوين، ص: 14 – 15.

(5) – ينظر: النّحو العربي والدّرس الحديث ((بحث في المنهج))، عبده الرّاجحي، دار النّهضة العربيّة، بيروت – لبنان، 1979، ص: 54.

الشّجريّ إذ قال: " وسألته يوما فقلت له: كيف تجمع ((دُكّانا)) ؟ فقال: دكاكين، قلت فسرحانا ؟ قال سراحين، قلت: فقرطانا؟ قال: قراطين، قلت: فعثمان؟ قال: عثمانون. فقلت له: هلا قلت أيضا عثامين؟ قال: أيش عثامين؟ أريت إنسانا يتكلّم بما ليس من لغته، والله لا أقولها أبدا ".[1]

5 / 2 ـ تناول الظّاهرة اللّغويّة على أساس الشّكل:

كان النّحاة الأوائل يتناولون كثيرًا من الظّواهر اللّغويّة على أساس شكليّ، لا على أساس معنويّ، والأساس الشّكليّ مبدأ من مبادئ اللّغويات الوصفيّة،[2] إذ إنّها تعنى بالظّاهر وهو الشّكل، أكثر من عنايتها بغير الظّاهر وهو المعنى. " ومنذ كتاب سيبويه رأينا معالجته للتّذكير والتّأنيث والتّعريف والتّنكير والإفراد والتّثنية والجمع والعلاقة بين الفعل والفاعل والمبتدإ والخبر وغير ذلك، على أساس الأشكال وليس على أساس المعاني ولعلنا نشير هنا إلى جملة من مثل ((ضارب زيد عمرا)) لنعرف أنهم صنّفوا الاسم الأوّل بأنّه فاعل، والاسم الثّاني بأنّه مفعول به، رغم أنّهما مشتركان في إحداث الفعل، ولكن تحليل الأشكال هو الّذي جعلهم يطرحون المعنى عند فهم التراكيب ".[3]

5 / 3ـ النّزعة الوصفيّة في بعض الأحكام المقرّرة:

إن النّزعة الوصفيّة لتظهر جليًّا في كثير من الأحكام اللّغويّة المقرّرة من قبل اللّغويّين والنّحاة الأوائل، فليس كل ما قرّروه في الحقيقة تأويلاً أو تقديرًا أو تعليلاً، بل كان للوصف التّقريريّ المحض نصيب فيه، لاسيّما في الأعمال اللّغويّة الأولى، كما هو الملاحظ في كتاب سيبويه، حيث بنى قواعد اللّغة في أغلبها على الاستعمال اللّغويّ ذاته، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:[4]

(1) – الخصائص، ابن جني، تح: محمّد عليّ النّجار، ج: 1، ص: 243.

(2) – ينظر: النّحو العربي والدّرس الحديث، عبده الرّاجحي، ص: 59. وكتاب الرّد على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، تح وتع: شوقي ضيف، ص: 4.

(3) – النّحو العربيّ والدّرس الحديث، عبده الرّاجحي ، ص: 59.

(4) – ينظر: النّحو العربيّ والدّرس الحديث، عبده الرّاجحي ، ص: 55 – 60.

أ – إقراره بدون تردّد أنّ القواعد والأحكام تجرى على كلام العرب، وتكرّرت في كتابه عبارات من نحو: "فأجره كما أجروه، وضع كلّ شيء موضعه .[1] " أو " فأجره كما أجرته العرب "[2] و" فأجره كما أجرته العرب واستحسنت ".[3]

ب – ابتعاده في أغلب الأحيان عن التّفسير المتكلّف للظّواهر اللّغويّة، في ظلّ غياب مادّة علميّة تساند رأيه، ويركن إلى الاستعمال مع الإقرار باستحالة الاستقراء التّامّ للكلام، ومن ذلك قوله: " وكلّ شيء جاء قد لزمه الألف واللاّم فهو بهذه المنزلة. فإن كان عربيّا نعرفه ولا نعرف الّذي اشتق منه فإنّما ذاك لأنّا جهلنا ما علم غيرنا، أو يكون الآخِرُ لم يصل إليه علم وصل إلى الأوّل المسمّى ".[4]

ج – عدم إغفاله لغات العرب؛ لاهتمامه بالاستعمال اللّغويّ ومراعاته له؛ ولاعتباره هذه اللّغات عناصر في اللّغة الموحَّدة؛ فتتبّع الاستعمالات اللّغويّة في غير موضع في ((الكتاب))، على أنّه كثيرًا ما يرجّح لغة أهل الحجاز، وليس ذلك على حساب الموضوعيّة، إذ لا يلبث أن يقرّر أفضلية لغة أخرى متى كان استعمالها هو الشّائع، يقول: " هذا باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب إذا استفهمت عنه بـ ((مَن)). اعلم أن أهل الحجاز يقولون إذا قال الرّجل رأيت زيدا: من زيدا ؟، وإذا قال مررت بزيد، قالوا: ((من زيدٍ))؟ وإذا قال هذا زيدٌ، قالوا: من زيدٌ ؟ وأما بنو تميم فيرفعون على كلّ حال، وهو أقيس القولين. فأمّا أهل الحجاز فإنّهم حملوا قولهم على أنّهم حكوا ما تكلّم به المسؤول، كما قال العرب: دعنا من تمرتان، على الحكاية لقوله ما عندنا تمرتان. وسمعت أعرابيًّا مرّة وسأله رجل فقال: ((أليس قرشيا ؟)) فقال: ليس بقرشيا، حكاية لقوله، فجاز هذا في الاسم الّذي يكون علما غالبا على ذا الوجه،

(1) – الكتاب، سيبويه، تح: إميل يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت. لبنان، ط: 1، 1420 هـ. 1999م، مج: 2، ص: 111.

(2). المصدر السّابق، مج:1، 462.

(3) – المصدر السّابق، مج:2، ص: 121.

(4) – المصدر السّابق، مج: 2، ص: 98.

ولا يجوز في غير الاسم الغالب كما جاز فيه، وذلك أنّه الأكثر في كلامهم وهو العلم الأوّل الّذي به يتعارفون.

وإنّما يُحتاج إلى الصّفة إذا خاف الالتباس من الأسماء الغالبة. وإنّما حكى مبادرة للمسؤول، أو توكيدا عليه أنّه ليس يسأله عن غير هذا الّذي تكلّم به. والكُنية بمنزلة الاسم. وإذا قال: ((رأيت أخا زيد))، لم يجز: من أخا زيد ؟ إلا على قول من قال: دعنا من تمرتان، وليس بقرشيا. والوجه الرّفع لأنّه ليس باسم غالب ".[1] فسيبويه في هذا النّص، ذكر شيئًا عن لهجة بني تميم، وعن لهجة أهل الحجاز، وعمّا تحدثّ به بعض الأعراب من دون الإشارة إلى انتمائهم القبلي أو الجغرافيّ

5 / 4 – **تفسير القوانين العامّة بكثرة الاستعمال**:

معظم التّفاسير التي حلّل النّحاة الأوائل بها قواعدهم العامّة تعتمد أوّلاً وآخرًا على كثرة الاستعمال، من ذلك تفسيرهم لظاهرة الحذف، إذ يقول: " وليس كل جارّ يضمر؛ لأنّ المجرور داخل في الجار، فصار عندهم بمنزلة حرف واحد، فمن ثمّ قَبُح، ولكنّهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر في كلامهم، لأنّهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج ".[2] و" التّرخيم حذفُ أواخر الأسماء المفرد تخفيفاً، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفاً، ... واعلم أنّ التّرخيم لا يكون إلاّ في النّداء إلاّ أن يُضطرّ شاعرٌ، وإنّما كان ذلك في النّداء لكثرته في كلامهم، فحذفوا ذلك كما حذفوا التّنوين، وكما حذفوا الياء من قومي ونحوه في النّداء".[3]

(1) - الكتاب، سيبويه، ، مج: 2، ص : 433.

(2) -المصدر السّابق، تح: إميل يعقوب، مج:2، ص: 163.

(3)- المصدر السّابق، مج: 2، ص: 247.

5 / 5 – القياس محاكاة العرب في كلامهم:

على الرّغم من كثرة ما قيل عن فكرة القياس، فإنّها لا تعني عند سيبويه في أغلب الأحيان سوى محاكاة كلام العرب ومتابعته، وفي الكتاب إشارات إلى هذا الرّأي، ومن ذلك قوله: " وتقول هذه ناقة وفصيلها راتعين...لأنّ هذا أكثر في كلامهم وهو القياس "؛[1] وقوله: " أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال: ((أعطاهوني)) فهو قبيح لا تكلّم به العرب، ولكن النّحويّين قاسوه ... وأمّا قول النّحويّين: قد أعطاهوكوأعطاهوني، فإنّما هو شيء قاسوه لم تكلّم به العرب، فوضعوا الكلام في غير موضعه، وكان قياس هذا لو تُكلّم به العرب كان هيّنا".[2] بل عارض كلاّ من الخليل ويونس (ت 182 ه) في تحليلهما لرفع ((أيّ)) في قولهم ((اضرب أيّهم أفضل))؛ فقال: " ومن قولهما: اضربْ أيٌّ أفضلُ. وأما غيرهما فيقول: اضربْ أيّاً أفضلُ. ويقيس ذا على الّذي وما أشبهه من كلام العرب، ويسلّم في ذلك المضاف إلى قول العرب ذلك، يعني أيّهم، وأجروا أيّاً على القياس. ولو قالت العرب اضربْ أيٌّ أفضلُ لقلته، ولم يكن بدٌّ من متابعتهم. ولا ينبغي لك أن تقيس على الشّاذّ المنكر في القياس، كما أنّك لا تقيس على أمس أمسك، ولا ((أ تقول)) ((أ يقول))، ولا سائر أمثلة القول، ولا على ((الآن)) ((آنك))، وأشباه هذا كثير".[3]

وبعد هذا العرض، يُمكننا الإقرار بأن الدّراسات اللّغوية العربيّة بدأت . مع شيء من التّجاوز . استقرائيّة وصفيّة في كثير من أصولها ثم انتهت إلى المعياريّة في الفترات التي تقادمت عليها، وبالتّحديد بعد القرون الثّلاثة الهجريّة الأولى.

(1) – المصدر السّابق، مج: 2، ص: 78.

(2) – المصدر السّابق نفسه، ص: 386. 387.

(3) – المصدر السّابق، مج: 2، ص: 421.

6 ـ الدّور التّنظيري للرّواد الوصفيّين العرب

6 / 1 ـ دور عبد الرّحمن أيّوب [1] في تنظير المنهج الوصفيّ:

على الرّغم من أنّ عبد الرّحمن أيّوب لم يفرد فصلا أو مبحثا يتناول فيه بالتّفصيل، الأسس النّظريّة والأصول المنهجيّة للمدرسة الوصفيّة التي يدعو إليها، فإنّ كتابه ((دراسات نقديّة في النّحو العربيّ)) لا يخلو من تلميحات تحمل شحنات تنظيريّة، لعلّ أهمّها وصف التّراث النّحويّ والثّقافة العربيّة بالتّقليديّة،[2] وهو أمر يسترعي انتباه القارئ ويقوده إلى الظّن أو الاعتقاد بوجود صنف آخر من النّحو والثّقافة، يمكن أن يوصف بغير التّقليديّة.[3]

ومن هنا، يحاول القارئ المعني بالقضايا اللّغويّة جاهدًا، استكشاف أصول هذه الدّراسات اللّغويّة غير التّقليديّة ومناهجها ومصطلحاتها بين دفتي الكتاب، إلاّ أنّه سرعان ما يدرك . حين يجد نفسه أمام انتقادات موجّهة إلى التّراث النّحويّ . أنّ الكتاب لم يتطرق إلى هذه المسائل النّظريّة إلا عرضًا، لا تفصيلاً.[4]

وممّا جاء عرضًا قوله وهو يحدّد أصول هذه الدّراسات غير التّقليديّة، " لقد اتّسم التّفكير اللّغويّ الحديث بموضوعية البحث واقتنع اللّغويّون بأن يكونوا وصّافين للظّواهر اللّغويّة لا مفلسفين لها ".[5] فأهمّ ما يقوم عليه التّفكير اللّغويّ الحديث إذًا، هو الموضوعيّة والوصفيّة، كما أنّ أبرز مدرسة لغويّة أولت لهذين العنصرين ما يستحقانه من العناية هي المدرسة التّحليليّة الشّكليّة School of formal analysis ؛ التي جعلت دراسة الأصوات الخطوة الأولى إلى الدّرس اللّغوي بمختلف فروعه، بالإضافة إلى أنّها جعلت الدّرس اللّغويّ أشبه في بعض صوره بالمعادلات الرّياضيّة.[6]

---

(1). رائد من رواد الحركة اللّسانيّة في الوطن العربيّ، حصل على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة لندن، ولمنعثر على ترجمته.

(2) – ينظر: دراسات نقدية، عبد الرحمن أيوب، ص: د.

(3) . ينظر: العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 168.

(4) . ينظر: المصدر السّابق، ص: 169.

(5) – دراسات نقدية، عبد الرحمن أيوب، ص: هـ .

(6). ينظر: المصدر السّابق، ص: هـ.و.

فالموضوعيّة عنده هي عدم تطبيق قواعد لغة على أخرى،[1] أمّا الوصفيّة فهي تنظر إلى اللّغة وتتبيّنها حجرًا حجرًا كالبناء الكامل من " دون أن يزيح واحدا من الأحجار عن موضعه في البناء "،[2] خلاف المدرسة التّقليديّة، بما فيها مدرسة النّحاة العرب، التي تبدأ بالجزء لتنتهي إلى بناء كامل، شأنها في ذلك شأن " البنّاء حين يضع حجرًا فوق حجرٍ لينتهي إلى بناء كامل ".[3]

ومن الأصول اللّغويّة التي ذكرها عرضًا أيضا، تلميحه إلى بعض الأصول النّظريّة للمدرسة اللّغويّة التي تبنّاها، وهي المدرسة الوصفيّة الأمريكيّة، وهذه الأصول كما يأتي:[4]

أ –شكل الكلمة أساس تقسيمها، لا معناها، كما أنّ تحليل الأحداث اللّغويّة ينبغي أن تقوم على الشّكل لا على الدّلالة.

ب – التّحليل الشّكليّ للكلمة يشمل دراسة مقاطعها وأجزائها ومواضعها بين الكلمات الأخرى.

ج – التّحليل الشّكليّ البنيويّ يصنف العناصر اللّغويّة حسب وظيفتها في الجملة.

د. تقرير الظّواهر اللّغويّة من دون تعليل.

هـ . نبذ الاعتبارات التّاريخيّة كلّها عند تقرير القواعد النّحويّة، وبعبارة أخرى وصف الحاضر بصرف النّظر عن الماضي الذي تطوّر عنه.

وقد حمل عبد الرّحمن أيّوب على الاختصار في المسائل المنهجيّة، اعتقادُه أنّه ليس في حاجة إلى شرح طريقة المدرسة الوصفيّة الأمريكيّة في تحليل اللّغة بالتّفصيل، أصولاً ومبادئَ، مع وجود كتاب زيلج هاريس Z. harris ((linguisticsMethods in structuralمناهج علم اللّغة البنيوي))،[5] الّذي يرى أنّه يشفي غليل القارئ العربيّ فيما يتعلّق بالمبادئ والأصول. لكن عبد الرّحمن أيّوب في رأيه هذا، لا يفلت من النقد، فَهَاريس ألّف كتابه لقرّاء غير عرب وفي ظروف فكريّة ولغويّة مغايرة للظّروف التي يعيشها العرب فكريًّا ولغويًّا: فقد

(1) –ينظر: العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 170.

(2) –ينظر: المصدر السّابق، ص: 171.

(3) – العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 171.

(4) – ينظر: دراسات نقدية، عبد الرحمن أيوب، ص: 11، هامش 1، وص: 21، 33، 61، 105، 122، 180.

(5) – ينظر: المصدر السّابق، هامش ص : 3.

يعمد في كتابه إلى التفصيل في موضوعات يحتاجها القارئ العربي مختصرة، أو يختصر فيما يحتاجه مفصلاً.[1]

وفي كتابه ((اللّغة والتّطوّر)) الذي ظهر في عام 1969م، حاول عبد الرّحمن أيّوب أن يستدرك ما يمكن ملاحظته على أعماله الأولى من إهمال لعرض أسس اللّسانيات الوصفيّة ومبادئها؛ فجبر هذا النّقص بسرد مجمل آراء دي سوسير، من تفريقه بين ثنائيّة اللّغة والكلام، ودعوته إلى التّمييز بين المنهجين الوصفيّ والتّاريخي في الدّراسات اللّغويّة،[2] بالإضافة إلى عرض موجز لأهمّ الأفكار التي توصلت إليها قريحة كلّ من بلومفليدوفيرث.[3]

2 / 6 ـ دور تمّام حسّان[4] في تنظير المنهج الوصفيّ:

(1) .ينظر: العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل، ص: 171.

(2).ينظر: اللّغة والتّطوّر، عبد الرّحمن أيّوب، 1969م، بدون معلومات النّشر، ص: 59.76.

(3).ينظر: المصدر السّابق، ص: 76.97.

(4). تمّام حسّان عمر محمّد داود، من كبار رواد الحركة اللّسانيّة في الوطن العربيّ، ولد في اليوم السّابع والعشرين من يناير عام 1918م، في قرية الكرنك بمحافظة قنا الواقعة في أقصى صعيد مصر. أوفدته دار العلوم في بعثة علميّة إلى جامعة لندن بمشورة من إبراهيم أنيس؛ ليتخصّص في علم اللّغة، وكان ذلك في فبراير من عام 1946م؛ فالتحق بمعهد الدّراسات الشّرقيّة والإفريقيّة التّابع لجامعة لندن، وحصل فيه عام 1949م على درجة الماجستير في علم اللّغة العام، فرع الأصوات اللّغويّة برسالته المعنونة بـ The phonetics of el karnak dialect ((upper Egypt)) (دراسة صوتيّة للهجة الكرنك في صعيد مصر). ثمّ حصل على درجة الدّكتوراة في الفرع نفسه سنة 1952م، وكان موضوع أطروحته ((The phonetics&phonology of an Aden Arabic ((South Arabia ((دراسة صوتيّة وفونولوجيّة للهجة عدن في جنوب بلاد العرب)). وقد تطلّب منه هذا التّخصص عملاً ميدانيًّا سافر من أجله إلى عدن، وأقام بها ستة أشهر ((مايو إلى نوفمبر 1951م)).

وعاد تمّام حسّان بعد شهر واحد من نيله درجة الدّكتوراه إلى مصر، وعيّن في أغسطس 1952م أستاذًا مساعدًا في كليّة دار العلوم، قسم فقه اللّغة، وهو الذي يعرف حاليًا بقسم علم اللّغة والدّراسات السّاميّة.وفي عام 1959م رقّي إلى درجة أستاذ مشارك، وانتقل بعده اضطرارًا من قسم فقه اللّغة إلى قسم النّحو والصّرف. وكان متضايقًا من هذا الانتقال، ما جعله يوافق على الفور على انتدابه عام 1961م؛ للعمل مستشارًا ثقافيًّا بسفارة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. آنذاك. في العاصمة النّيجيريّة ((لاجوس)). وأثناء عمله في نيجيريا، حصل على درجة أستاذ كرسيّ في النّحو والصّرف من كليّة دار العلوم، ببحث علميّ تقدّم به إلى الكليّة، وكان ذلك في عام 1964م.=

يحتلّ تمّام حسّان مكانةً مرموقةً في اللّسانيات العربيّة؛ لما قام به من جهد وجهاد في سبيل ترسيخ معالم اللّسانيات باعتبارها علمًا من علوم العربيّة، ويتجسد ذلك في أعماله الجليلة التي أنارت الطريق لأساتذة اللّسانيات وطلاّبها في المراكز العلميّة بالوطن العربيّ.[1] ويعدّ كتاب تمّام حسّان ((اللّغة بين الوصفيّة والمعياريّة)) المنشور عام 1958، من أكثر الكتب ذات الطّابع التّنظيريّ دقةً وشمولاً. وربّما يكون ذلك عائدًا إلى الحافز الّذي كان وراء تأليف هذا الكتاب، فقد عقد تمّام حسّان العزم على تأليفه حين رأى معظم النّاس . على حدّ قوله . " يشكون داء من النّحو العربيّ لا يستطيعون تشخيصه، فإذا أرادوا تشخيص هذا الدّاء انصرفوا من دون قصد إلى سرد أغراضه؛ فتكلّموا في جزئيات النّحو، لا في صلب المنهج.

=وعمل تمّام حسّان رئيسًا للجمعيّة اللّغويّة المصريّة التي أنشأها هو عام 1970م، إلى أن أعير إلى كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة محمّد الخامس في الرّباط، حيث ظلّ مرتبطاً بها حتّى عام 1979م.

ثمّ انتخب عضوًا في مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة بعد عودته إلى مصر، لكنّه قدّم استقالته اضطرارً من عضويّة المجمع عام 1988م؛ نظرًا لاعتراض بعض أعضاء المجمع على إقامته خارج مصر، مع أنّ إقامته في مكّةالمكرّمة. حيث كان يربطه بجامعة الملك عبد العزيز، فرع مكّة المكرّمة ((جامعة أم القرى حاليًا)) عقد. لم تكن تمثل أمامه عائقًا عن حضور جلسات المؤتمر السّنوي للمجمع ولا عن أداء مهمّته فيه.

حظي تمّام حسّان بحياة حافلة بالنّشاطات العلميّة، ويمكن تصنيف هذه النّشاطات بصفة عامّة إلى أربعة مجالات، هي مجال التّدريس، ومجال التّأليف، ومجالالتّرجمة، ومجال المقالات والبحوث، بالإضافة إلى غيرها من النّشاطات التي كان يعيشها على هامش هذه المجالات الكبرى من مشاركات في النّدوات والمؤتمرات، وإلقاء محاضرات عامّة وإشراف على الرّسائل العلميّة والاشتراك في مناقشته

وممّا يدلّ على مكانة تمّام حسّان العلميّة ورود اسمه ضمن الأعلام الواردة أسماؤهم في موسوعة جامعة كامبردج المسماة بـ International Who's who in education، وفي موسوعة أعلام مصر في القرن العشرين التي أصدرتها وكالة أنباء الشّرق الأوسط بالقاهرة عام 1996م. وجاءت ترجمة تمام حسّان طويلةً في هذا الهامش انعكاسًا لمكانته العلميّة ونشاطه اللّغويّ الزّاخر بالإبداع. ينظر: تمّام حسّان: سيرة ذاتيّة ومسيرة علميّة، عبد الرّحمن حسن العارف ضمن كتاب تذكاريّ بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويًّا، ص: 33.13؛ ومنهج دراسة اللّغة عند تمّام حسّان، محمود فتح الله أحمد الماجري، رسالة علميّة غير منشورة، جامعة الفاتح، ص: 7.2 و166. 170؛وتمّام حسّان: مجدّد العربيّة www.islamonline.net، arabic، famous، 2006، 01، article05.shtml.

(1) . ينظر: النّص المعجمي في المولدات والأعجميات: حرف التاء من المعجم الوسيط نموذجًا، محمّد رشاد الحمزاوي، بحث ضمن كتاب تذكاري بعنوان: تمّام حسّان رائدًا لغويًّا ، ص: 335.

وشتان بين من ينقد أجزاء المادّة وبين من يريد علاج الفلسفة التي انبنت عليها دراستها؛ لهذا فكرت في أمر الدّراسات العربيّة القديمة، من حيث المنهج لا من حيث التّفاصيل، وجعلت تفكيري في أمرها مستضيئا بمناهج الدّراسات اللّغويّة الحديثة ".[1] وأكّد على هذا الرّأي عليٌّ أبو المكارم.[2]

وقد فطن تمّام حسّان بِبُعد نظره، إلى أنّ أساس الشّكوى هو تغلّب المعياريّة[3] على حساب الوصفيّة في التّراث اللّغويّ العربيّ؛ فأقام كتابه بصورة متوازية على أمرين اثنين، هما:

أ ـ التّعريف بالمنهج الوصفيّ والدّعوة إليه.

بـ نقد التّفكير اللّغويّ العربيّ القديم.

ويعني ذلك أنّ صاحب هذا الكتاب ينقد منهجًا قديمًا ويقدّم منهجًا جديدًا استمدّه من التّفكير اللّغويّ الحديث. ونظرا لطبيعة البحث وخطواته المنهجيّة، فإنّ الحديث في هذه الجزئيّة ينحصر في الفقرة ((أ))، التي تتمثّل في تعريف تمّام حسّان بالمنهج الوصفيّ ودعوته إليه، على أن يعقبه الحديث عن الفقرة ((ب)) المتعلّقة بنقد التّفكير اللّغويّ العربيّ القديم في موضعه بالفصل الثّاني.

فالمنهج الوصفيّ. كما يتحدث عنه تمّام حسّان. هو جوهر الدّراسات اللّغويّة الحديثة، وهو مرتبط بعناصر منهجيّة، أهمّها الرّموز اللّغويّة، فالاستقراء والتّقعيد والنّماذج اللّغويّة؛ بمعنى أنّه على نقيض المعياريّة التي ترجع إلى أمور استعماليّة بعيدة عن المنهج، كالقياس والتّعليل والمستوى الصّوابي.[4]

---

(1) – اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص: 3.

(2). ينظر: أصول التّفكير النّحويّ، عليّ أبو المكارم، منشورات الجامعة اللّيبيّة، كليّة التّربيّة، 1392. 1393 هـ. 1973م، ص: ط.

(3) – مصطلح مستمد من التفكير اللغوي الغربي مقابلاً للوصفية، واستعمله هنا على غرار عبد الرّحمن أيوب الذي وصف اللغويات القديمة بالتقليدية.

(4) – ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان ، ص: 5.

ويعود تمّام حسّان بالتّباين القائم بين المعياريّة والوصفيّة إلى الفروق الكامنة فيما بين الاستعمال اللّغويّ والبحث اللّغويّ أوّلاً، وفيما بين المتكلّم والباحث ثانيًا.

وهذه الثّنائيات الثّلاث هي الفلسفة التي يقوم عليها الكتاب ((اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة))، وكأنّما صاحبه متأثر بدي سوسير في ولوعه بالثّنائيات.

فالاستعمال اللّغويّ نشاط يخص المتكلّم، وهو تطبيق لأسس معيّنة في حدود معايير معيّنة، في حين أنّ البحث اللّغويّ نشاط يخصّ الباحث، وهو تفتيش استقرائيّ . بواسطة الوصف.عن تلك الأسس التي يطبّقها المتكلّم.[1]

أمّا المتكلّم فيختلف عن الباحث في أنّه خاضع للعرف، سواء في نطقه أم في مراعاته للقواعد التي يعجز عن إدراكها جملةً أو تفصيلاً، كما أنّ موقفه من اللّغة لا يختلف عن موقفه من العادات والتّقاليد والدّين، " باعتباره مجموعة من الأصول السّلوكيّة التي يجب أن تراعى "؛[2] ما يجعل نشاطه معياريّا، علاوةً على أنّ الباحث خاضع لمنهج يعينه على تحديد ما يتّصل بطبيعة المادّة اللّغويّة المدروسة وهو يسعى حثيثًا للكشف عن تلك القواعد التي يعجز المتكلّم عن إدراكها؛ فيكون موقفه في دراسة اللّغة كموقفه في دراسة الظّواهر الاجتماعيّة الأخرى، فإذا " كان كلّ نشاط اجتماعيّ تتمّ دراسته عن طريق الملاحظة والوصف، فلا شكّ أنّ اللّغة، وهي نشاط اجتماعيّ، يجب أن تدرس كذلك بالملاحظة والوصف "،[3] وبذلك يكون نشاطه وصفيّا.[4]

ويبدو أن تمامّ حسّان استقى مفهومه هذا عن اجتماعيّة اللّغة من مدرسة فيرث، فـ " إغفال العنصر الاجتماعيّ في اللّغة يحرم الدّراسة من أقوى خصائص هذا الموضوع المدروس، ويجعل الوصف في هذا المنهج الوصفيّ يتناول وجها شكليّا من المسألة، ويهمل وجهها

(1) – ينظر: المصدر السّابق ، ص: 4 – 5.

(2) – اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص: 11.

(3) – المصدر السّابق، ص: 17.

(4) – ينظر: المصدر السّابق، ص: 5.

الآخر الّذي يمثّل جوهرها وروحها ".[1] ويعني هذا، أنّ الوصفيّة التي يدعو إليها تمّام حسّان وصفيّة تولي أهمّية قصوى للمعنى، وهي غير الوصفيّة الشّكليّة التي دعا إليها عبد الرّحمن أيّوب في دراساته النّقدية للنّحو العربيّ.

وفي تمهيد الكتاب، يقدّم تمّام حسّان للقارئ العربيّ الأصول والمبادئ العامّة للوصفيّة التي اعتنقها ويدعو إليها، ويمكن إجمال هذه الأصول والمبادئ فيما يأتي:

* الباحث في القضايا اللّغويّة يشبه الباحث في تشريح الجسم الإنسانيّ، فإن لم يتوقع من الأخير " أن يعبّر عن أفكاره بقوله يجب أن تكون العضلات الفلانيّة بهذا الموقع، أو يجب أن يكون العظم الفلانيّ بهذا الحجم أو الصّورة "،[2] فلا يتوقع من الباحث اللّغويّ أنّ يعبّر عن أفكاره بما يجوز وما لا يجوز.

* الباحث اللّغويّ يسعى إلى وصف الحقائق اللّغويّة للغة ما وصفا استقرائيًّا، في مرحلة بعينها، لا إلى فرض القواعد، بحيث لا يتعدّى نشاطه الملاحظة والوصف والتّسجيل.[3]

* القواعد التي تستخلصها الدّراسة الوصفيّة ليست معياريّة، بل هي النّواحي المشتركة بين المفردات التي خضعت للاستقراء والوصف.[4]

وعلى الرّغم من سيطرة الطّابع المعياريّ على التّراث اللّغوي العربيّ، فإنّ تمّام حسّان لا ينكر بأن تكون في بعض ما قرره النّحاة قواعد وصفيّة، الأمر الّذي استدعاه إلى سرد نماذج وصفيّة من هذا التّراث.[5]

هذا، وقد سبق أن أشاد تمّام حسّان باللّسانيّات الوصفيّة من قبلُ، وكان ذلك في كتابه ((مناهج البحث في اللّغة))، وكان من جملة ما ورد في هذا الكتاب بهذا الصّدد قوله: " وتبدو الحاجة ملحة في أيّامنا هذه إلى بناء الدّراسات اللّغويّة على منهج له فلسفته وتجاربه؛ إرضاءً

(1) – المصدر السّابق، ص: 16.

(2) – المصدر السّابق ، ص: 18.

(3) – ينظر: المصدر السّابق والصفحة نفسها، ص: 18.

(4) – ينظر: المصدر السّابق والصفحة نفسها.

(5) – ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان ، ص: 18 – 20. وللاستزادة ينظر: ص: 33- 37.

للرّوح العلميّة الخالصة من جهة، وتوفيرًا لجهود عشّاق اللّغة من جهة أخرى ".[1] وتعرض كذلك لخصائص هذا العلم الوافد، من استقلاليّة المنهج وتفريقه بين ظاهرتي اللّغة والكلام، مع سرد موجز لمنعطفاته الحاسمة وأفكار رواده الغربيّين الرّئيسة، وبالتّحديد رؤى دي سوسير الرّائدة.[2]

3 / 6 ـ دور كمال بشر[3] في تنظير المنهج الوصفيّ:

يعدّ كمال بشر من الرّعيل الأوّل الذين عملوا على نشر اللّسانيّات في الجامعات العربيّة، "فقد نهض بتدريسه بجامعة الملك سعود، وبكلّية التّربية وكلّية الإنسانيات والعلوم الاجتماعيّة بقطر، وبكلّية الآداب بجامعة الإمارات وبجامعة الكويت، وبمعهد بورقيبة للّغات، هذا بالأصالة إلى تدريسه بكلّية دار العلوم وبكلية الآداب والإعلام بجامعة القاهرة وبكلّية البنات وكلّية الألسن جامعة عين شمس وبمعهد البحوث والدّراسات العربيّة بمعهد الفنون المسرحيّة وبمعهد الدّراسات والبحوث الإفريقيّة ".[4]

---

(1). مناهج البحث في اللّغة، تمّام حسّان، ص: 13.

(2). ينظر: المصدر السّابق، ص: 22.64.

(3). كمال محمّد عليّ بشر، رائد من روّاد الحركة اللّسانيّة، ولد بمحلة دياي مركز دسوق في محافظة كفر الشّيخ عام 1921م، حفظ القرآن الكريم وجوّده بالكُتَّاب، والتحق بعد ذلك بمعهد دسوق الديني لتلقي التّعليم الابتدائيّ. وبعد أن أكمل المرحلة الابتدائية بالمعهد المذكور، التحق بالمعهد الثانوي الأزهري بالإسكندرية وقضى فيه عامين، حيث انتقل بعد ذلك إلى معهد طنطا، ومنه نال الشهادة الثانوية. ثمّ التحق بدار العلوم ونال منها درجة ليسانس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية 1946م بتقدير ((ممتاز)) وكان أول الفرقة. وحصل على دبلوم المعهد العالي للمعلّمين في التّربية وعلم النّفس عام 1948م. أوفد بعد ذلك في بعثة علميّة إلى إنجلترا للتخصص في علم اللغة في جامعة لندن؛ فحصل منها على درجة الماجستير في علم اللغة المقارن عام 1953م وعلى درجة الدكتوراه في علم اللغة والأصوات عام 1956م.

وقد تدرج كمال بشر " في مراتب التعليم الجامعي فعين مدرسًا بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم 1956م، ثم أستاذًا مساعدًا 1962م، ثم أستاذًا 1970م. عين رئيسًا لقسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية بكلية دار العلوم من 1969م حتى 1987م، ثم وكيلاً لها 1973م، ثم عميدًا 1973 – 1975م، ثم أستاذًا متفرغًا من 1978م حتى الآن ". ينظر: موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرةwww.arabicacademy.org.eg/FrontEnd/Members.aspx

(4) . موقع مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة www.arabicacademy.org.eg، FrontEnd، Members.aspx

وسلك هذا الرّائد طريقا مغايرًا لطريق سابقيه في لفت نظر القارئ العربيّ إلى اللّسانيات، بأن درس التّراث اللّغويّ وراجعه في ضوئها، محاولاً الكشف عن جوانب من هذا التّراث تتفق مع مبادئ اللّسانيات وأصولها. " و هو اتّجاه ما لبث أن أصبح تيارًا[1] وحركة جديدة في قراءة التراث العربي، سعيا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات علم اللّغة الحديث "،[2] واستشفاف نظرياته الأصيلة.

والتّفكير اللّغويّ الحديث. كما يحدّد مفهومه كمال بشر. هو دراسة جوهر اللّغة وحقيقتها وعناصرها الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والمعجميّة والدّلاليّة، إلى جانب البحث عن وظيفتها في المجتمع وعلاقتها باللّهجات والمستويات اللّغويّة، من فصحى وعاميّة، وما يعرف بالصّواب والخطأ.[3]

غير أنّ هذا التّعريف لا يسلم من نقد؛ لاعتباره مسألة الصّواب والخطأ من مسائل علم اللّغة الحديث، مع أنّها بعيدة كل البعد عنه.

6 / 4 ـ دور محمود السّعران[4] في تنظير المنهج الوصفيّ:

(1) – يعتبر كتاب نظرية النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللّغويّ الحديث للدّكتور نهاد موسى أصدق ما يمثل هذا التيار.

(2) – العربية وعلم اللّغة البنيويّ، حلمى خليل ، ص: 192.

(3). ينظر : المصدر السابق، ص: 92 – 93 نقلا عن: دراسات في علم اللّغة (القسم الثّاني، كمال بشر، دار المعارف، القاهرة. مصر، ط: 2، 1971م، ص: 14.9.

(4). محمود حسن عطيّة السّعران، رائد من رواد الحركة اللّسانيّة في الوطن العربيّ، ولد في اليوم السّابع من الشّهر الخامس من عام 1922م، تلقّى علومه الجامعيّة في جامعة الإسكندريّة بمصر، كما قضى فيها الصّنف الأوّل من مرحلة الدّراسات العليا؛ فتحصّل فيها على درجة اللّيسانس عام 1943م، ثمّ على درجة الماجستير عام 1947م من قسم اللّغة العربيّة بكليّة الآداب.

وسافر محمود السّعران بعد نيله درجة الماجستير من جامعة الإسكندريّة إلى بريطانيا، حيث التحق بجامعة لندن، وتخرّج فيها بدرجة الدكتوراه في اللّسانيات عام 1951م. وعاد بعدها إلى مصر ليشتغل بالتّدريس في كليّة الآداب بجامعة الإسكندريّة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في 21، 12، 1963 بالإسكندريّة.

وعلى الرّغم من أنّ محمود السّعران لم يعش طويلاً، إذ توفي في عمره الواحد وأربعين، فإنّه خلف كنزًا علميًّا لا يستهان به، ويتوزّع هذا الكنز بين التّأليف والتّرجمة والأبحاث. وقد أسفر عن نشاطه التّأليفي كتابان حظيا بشهرة على نطاق واسع في الوطن العربيّ، وهما:

. علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربيّ))، وهو من إصدارات دار المعارف الإسكندريّة عام 1962م.

. اللّغة والمجتمع ((رأي ومنهج))، وظهرت طبعته الأولى في يونيو 1958م في المطبعة الأهليّة بمدينة بنغازي، ليبيا، ثمّ أعادت إصدارَها دارُ المعارف الإسكندريّة عام 1963م. ينظر: علم اللغة ((مقدمة للقارئ العربي))، محمود السّعران، دار الفكر العربيّ، ط: 2، 1997م، غلاف الكتاب.

قد أسهم محمود السّعران في تنظير المنهج الوصفيّ بكتابه: علم اللّغة ((مقدّمة للقارئ العربيّ))، و" من عنوان الكتاب نشعر بصورة مباشرة أنّنا أمام علم غريب على القارئ العربيّ، ومن ثمّ فهو يسعى لتقديم أصول هذا العلم الأساسيّة بشكل واضح وبسيط بحيث لا يستغلق على القارئ الخالي الذّهن استيعابه "؛[1] فافتتحه بالإشادة بالدّراسات اللّغويّة الغربيّة الحديثة؛ لما حظيت به من الاستقلاليّة ووفرة الوسائل، مع الإشارة إلى أنّ معرفة العالم العربيّ وإلمامه بهذه الدّراسات لا تزال سطحيّة، وأنّها تنتظر الجهود الجادّة المتلاحقة من الأفراد والهيئات لتنهض بها، على أن يكون الجانب التّأليفيّ من هذه الجهود باللّغة العربيّة، ففي رأيه لن يكون للعرب " علم اللّغة ما اقتصر المتخصّصون على دراسته في أصوله الأجنبيّة ".[2] ومن هذا المنطلق، بادر بكتابه هذا، ليكون لبنة يسهم بها في تعريف القارئ العربي بالفكر اللّغويّ الحديث.[3]

وقد شرع محمود السّعران يدعو في تمهيد الكتاب إلى الاتّصال باللّسانيّات،[4] الّتي صار لها من الشّأن ما لسائر العلوم، على الرّغم من أنّها لمّا تكتمل بعد لحداثة عمرها، إذ لها موضوعها ومناهجها ووسائلها وقوانينها المستخلصة، وإن كانت لا تتّسم بحتميّة القوانين الطّبيعيّة. وقد استعرض بعد ذلك مفهوم اللّسانيات وموضوعها وفلسفتها،[5] لينتقل من هذه العناصر باعتبارها مقدّمات أساسيّة إلى التحّليل البنيويّ للّغة، ابتداءً بعلم الأصوات ومرورا بالنّحو وانتهاء بالدّلالة،[6] من دون أن يلتزم مدرسة لغويّة بعينها، بل يركن إلى التّعريف بالأصول العامّة التي ارتضاها " والتي قلّ أن يختلف فيها أصحاب هذا العلم، مع بيان مصادرها ومذاهب أصحابها في معظم الأحوال، ومع الإشارة في الوقت نفسه، إلى الآراء المختلفة

(1) – العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمى خليل، ص: 206 – 207.
(2) – علم اللغة ((مقدمة للقارئ العربي))، د، محمود السّعران، ص: 28.
(3) – ينظر: المصدر السّابق، ص:5، 21، 28.
(4) – ينظر: المصدر السّابق، ص: 15.
(5) – ينظر: علم اللغة ((مقدمة للقارئ العربي))، د، محمود السعران، ص: 49 – 82.
(6) – ينظر : المصدر السّابق، ص: 87 – 313.

الصّادرة عن مذاهب أخرى، حتى يكون القارئ على بيّنة من المذاهب اللّغوية المختلفة، وعلى دراية بالفلسفة التي قامت عليها، وعلى علم بأهمّ المؤلّفات فيها، فلا يضلّ الطّريق في زحمتها عندما يتاح له الاتّصال بشيء منها ".[1]

ولم يخل من قبل، كتابه ((اللّغة والمجتمع: رأي ومنهج))، من الإشادة بالدّراسات اللّسانية، إذ يذكر في المقدّمة أنّ هذا النّوع من الدّرس اللّغوي أصبح علمًا له قوانينه ومناهجه ووسائله،[2] مع الإشارة إلى المساعي الحثيثة للّسانيّات في البحث عن طرق دراسة اللّغة باعتبارها ظاهرة إنسانيّة عامّة؛ كما أشار إلى ما ينبغي أن تكون عليه اللّسانيّات من الاستقلاليّة والموضوعيّة.[3]

وبما أن كلّ وافد جديدٍ، علمًا كان أو فنًّا أو غيرهما، تعتري سبيله العقبات والصّعوبات، أخذ هذا الرّائد يرصد للباحث اللّسانيّ العربيّ ما يمكن أن يلقاه من عراقيل ومعوّقات، فيكون على استعداد لمجابهتها وإيجاد حلّ لها؛ دفعا بعجلة هذا العلم نحو خطوات متقدّمة.

وكان بجانب هؤلاء الرّواد الأفذاذ غيرهم من اللّغويّين المتبنّين اللّسانيات الوصفيّة، من أمثال أنيس فريحة، وكان لأولئك أيضًا إسهام في التّعريف بهذا العلم ، ومن ذلك قول أنيس وهو يتحدّث عن علم اللّسانيات بشكل عام، مع شيء من التّركيز على المنهج الوصفي منه:[4] " وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهه اللّغوي والفلسفي لأنّه علم له أوثق أوثق العلائق بالفكر: الفلسفة والدّين والأدب والعلم والفنّ ".[5]

(1) – ينظر: المصدر السّابق، ص: 7.

(2) .ينظر: اللّغة والمجتمع ((رأي منهج))، محمود السّعران، ص: 3.

(3) .ينظر: اللّغة والمجتمع ((رأي منهج))، محمود السّعران ، ص: 9.

(4) .ينظر: نحو عربيّة ميّسرة، أنيس فريحة، ص: 59، و62. 65.

(5) .المصدر السّابق، ص: 58.